الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد المائة واثنين . السنة التاسعة . يوليه ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 102 - July 2007

أسمهان .. الأيقونة

هل انتهت حرب الأيام الستة ؟! اليوم السابع !

ديفيد ريمنك

مساءلة مقال .. العوّا يرد على عصفور !

محمد سليم العوّا

نساء القصر المستبدّات !

محمد عبد الرحمن يونس

السنة التاسعة
العدد المائة واثنان
يولية ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

حقوق نشر
جميع المواد والرسوم
محفوظة

محتويات العدد:

• ديفيد ريمنك ٤
«اليوم السابع»
1967: Israel, the War, and the Year that Transformed the Middle East تأليف: توم سيجف
• أندريه فيرساى ١٠
«شهادات»
• صالح النعامى ١٢
«العملاء»
• جوناثان رايان ١٦
«فى نهاية النفق»
Terrorist تأليف جون أبدايك
• كريس فلويد ٢٠
«بترول العراق.. الجائزة الكبرى»
• حسين عبدالله ٢٢
«قانون المحتل»
• فاروق شوشة ٢٦
«لغة للمرأة ولغة للرجل»
غريب الوجه واليد واللسان، تأليف: فاروق شوشة
• ديمتريوس ثاناسولاس ٢٩
«لغة متمردة»
• محمد عبدالرحمن يونس ٣١
«قوانين القصر.. ونساؤه»
• دينا حشمت ٣٦
«من حلم المدينة الكبيرة إلى عزلة الضواحى.. قاهرة الرواية العربية»
المقالة تلخيص لرسالة حصلت بها الباحثة على درجة الدكتوراة بعنوان:
évolution des représentations de la ville du Caire dans la'L , littérature égyptienne moderne et contemporaine
• محمد سليم العوا ٤٤
«الإسلام دين ودولة.. مساءلة مقال»
• عمار على حسن ٥٢
«الدين والسياسة فى مصر.. من تأليه الحكام إلى تكفيرهم!»
• ليلى عنان ٥٦
«الحفر فى المقدس»
• امية جوزيف سماحة ٦٠
«صورة عائلية: كان جوزيف...»
• محمد فؤاد الذاكرى ٦٥
«كوميديا العرب»
• شريفة زهور ٦٨
«أسمهان.. الأيقونة»
Asmahan's Secrets : Woman, War, and Song تأليف: شريفة زهور.
• عزت إبراهيم ٧٢
«عرابى فى الصحافة الأمريكية»
• إصدارات جديدة ٧٥
• أيمن الصياد ومحمود درويش ٨٢
قراءة: «الجرار الفارغة»

كتّاب العدد:

. امية جوزيف سماحة.. دارسة لعلم النفس.
. أيمن الصياد .. صحفى.
. جوناثان رايان.. كاتب بريطانى مقيم فى مدينة سياتل الأمريكية.
. حسين عبد الله.. خبير اقتصاديات البترول والطاقة.
. ديفيد ريمنك.. صحفى أمريكى.
. ديمتريوس ثاناسولاس.. محاضر فى الأدب واللغة الإنجليزية فى جامعة أثينا . اليونان.
. دينا حشمت.. صحفية ومترجمة.
. شريفة زهور.. أستاذة الدراسات الإسلامية والإقليمية بمعهد الدراسات الاستراتيجية بالنمسا.
. صالح محمد النعامى.. صحفى من فلسطين.
. عزت إبراهيم.. صحفى.
. عمار على حسن.. مدير مركز الدراسات بوكالة أنباء الشرق الأوسط.
. فاروق شوشة.. أمين عام مجمع اللغة العربية.
. كريس فلويد.. صحفى أمريكى.
. ليلى عنان .. أستاذة الحضارة الفرنسية . جامعة القاهرة.
. محمد سليم العوا.. رئيس جمعية مصر للثقافة والحوار.
. محمد عبد الرحمن يونس.. كاتب وباحث.
. محمد فؤاد الذاكرى.. باحث فى التراث العربى، سوريا . حلب.
. محمود درويش.. شاعر.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى - سعد الدين شحاته

يحظر النسخ أو الطبع أو التصوير على دعامات ورقية أو عبر الحاسبات لكل أو بعض المقالات المنشورة أو أجزاء منها، بغير إذن كتابى مسبق من الناشر.

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب . القاهرة . جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ . فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى . ص . ب : ٢٢ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ . فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية . السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير . اليمن ٣٠٠ ريال . فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

قوانين القصر .. ونساؤه

محمد عبد الرحمن يونس

■■ ما دفعني إلى كتابة هذا الكتاب، وبالدرجة الأولى - إعجابي بكتاب ألف ليلة وليلة، وقدرته على استجلاء مظاهر المدن، سواء أكانت مُتخيلة أم واقعية، على المستويين: الاجتماعي والسياسي، وإعجابي بعنصر السرد الأخّاذ الذي اعتمده رواة ألف ليلة وليلة، وقدرته العجيبة على إضفاء وشاح من السحر والخرافة على واقع المدن الإسلامية وغير الإسلامية، ومن ثم لإدانة المدن نفسها، بسلطاتها، وعاداتها وقيمها، وطبقاتها الاجتماعية، والسياسية، وعلاقاتها الجنسية المتهتكة أحيانا، والمشروعة أحيانا أخرى، مع فسادها في الوقت نفسه.

ويرجع سبب اقتران الاستبداد السلطوي بالفساد الجنسي في كتابي هذا إلى أنّ وجود الجماعات السياسية التي تحكم مدن ألف ليلة وليلة وتدير شؤونها، تقوم على رأسها سلطات فاسدة باطشة متجبّرة تحرّكها شهواتها الجنسية وتتحكم في قرارتها، وتبطل إعمال العقل، إذا حضر الجسد الشهواني المكتنز إثارة وجمالا جنسيين، وعلى الرغم من كل ذلك، نجد أنّ سكان مدن ألف ليلة يعتقدون أنّ ملوكهم أو خلفاءهم هم ظلّ الله على الأرض، والأوصياء على شريعته. ونظراً لأنّ سلطات هذه المدن سلطات استبدادية فإنّه يُلاحظ أن قوانين هذه المدن وأعرافها وتقاليدها تتشكّل بالدرجة الأولى تأسيساً على قوانين سلطة القصر ورغباتها، قبل أن تُستمد من رغبات الشعب وآماله وتطلّعاته.

وإذا كان حكّام ألف ليلة وليلة خلفاء أو ملوكاً يستشيرون وزراءهم أو قادة جيوشهم العسكريّة، أو خاصّة المقربين منهم في بعض الأحيان، فإن هؤلاء الحكّام يظلّون في نهاية المطاف أنانيين وفرديين وطغاة يتعاركون لأجل النساء، ويبددون أموال دولهم للحصول على هاته النساء اغتصابا أو امتلاكا.. ومن هنا بدا لي أنّ دراسة ملامح حكام ألف ليلة وليلة يجب أن تكون متزامنة مع دراسة ملامح الجانب الجنسي الشبقي لدى هؤلاء الحكام.

كنت أشعر حين قراءتي لنصوص ألف ليلة وليلة بمتعة عارمة تستوطن ذاكرتي، فقد كانت قادرة على إيقاظ جميع أحلامي الجامحة الملغاة، المتوثّبة أبداً صوب مدن نائية مسكونة بالدهشة والغرابة. وهذه المتعة التي كنت أعايشها كانت أكبر من جميع المتع التي كنت أجدها في الخطابات الأدبيّة الأخرى، من شعر قديم وحديث وقصّة ورواية ومسرح وتراث أدبي وتاريخي. مسكوناً بالدهشة والأحلام الجامحة التي لم تتحقق طوال حياتي، رحت أقرأ هذه النصوص بشغف العاشق المنبهر بجمالها، وسحرها وصدقها وكذبها في آن. ولعلّ هذه الدهشة هي السبب الرئيس الذي دفعني لكتابة كتابي هذا ونتيجة لإعجابي بهذا العمل، عكفت منذ سنوات على قراءته قراءة المستمتع، ثم حاولت دراسته وفهم نصوصه، وبعد ذلك أنجزت فيه عدّة أبحاث طويلة نُشرت في المجلات العربية(١).

وقد لاحظت، من خلال كثير من الدراسات حول ألف ليلة وليلة، والتي استطعت الاطلاع عليها، سواء أكانت مترجمة إلى اللغة العربية أم مكتوبة بها، أنّ هذه الدراسات لم تدرس موضوع الفساد السلطوي دراسة مستقلّة ومستفيضة، ولا موضوع الفساد الجنسي، ولذا كان كتابي محتفيا بهذا الموضوع..

ومن هنا، فإنّ الآراء التي تطالب بالتوقف عن البحث في حكايات ألف ليلة وليلة، بدعوى أنّ هذه الحكايات قد استوفت حقّها من الدراسة والتحليل(٢)، ليست صائبة تماماً، لأنّ نصوص الليالي قابلة لمزيد من الدرس والتحليل، ومن زوايا نظر متعددة، بتعدّد الباحثين وقدراتهم ومواهبهم، وطرائقهم المختلفة في التحليل والدراسة. فالأبحاث في ألف ليلة وليلة لا يمكن أن تكون نهائيّة، لأنّ هذه النصوص تنفتح على تاريخ الأمم والحضارات، وميثولوجياتها، وعاداتها وقيمها وثقافتها، وحروبها وانتصاراتها وهزائمها، وعلى ما هو جميل وقبيح، وخيّر وشرير فيها، وبالتالي فإنّ البحث في هذه النصوص يظلّ قائماً ومشروعا، لأنّ نصوص ألف ليلة وليلة تظلّ نصوصاً خالدة على مرّ العصور، وقادرة على أن

الاستبداد السلطوى والفساد الجنسى فى ألف ليلة وليلة
محمد عبدالرحمن يونس
بيروت. الدار العربية للعلوم. ناشرون. ٢٠٠٧

يرجع سبب اقتران الاستبداد السلطوي بالفساد الجنسي إلى أن وجود الجماعات السياسية التي تحكم مدن ألف ليلة وليلة وتدير شؤونها، تقوم على رأسها سلطات فاسدة باطشة متجبّرة تحركها شهواتها الجنسية وتتحكم في قرارتها، وتبطل إعمال العقل

تكون منبعاً ثراً لكثير من النصوص الإبداعية الحديثة، سواء في الشعر، أو في القصة، أو في الرواية، أو في المسرح، أو في السينما.

ومن هنا بدا لي أن المنهج الذي يمكن أن يساعدني على فهم نصوص حكايات ألف ليلة وليلة وتحليلها، وعلى دراسة نقاط التلاقي بين ما جاء في هذه الحكايات وبين ما هو قائم في المجتمعات العربية والإسلامية، هو منهج الدراسات الاجتماعية، ولذا فقد اعتمدت بعض معطياته في دراسة نصوص الليالي وقارنت بين ما جاء في هذه النصوص وبين ما هو قائم أساساً على أرض الواقع. ففي نصوص ألف ليلة وليلة لا يمكن الفصل بين النصوص الحكائية وبين الواقع الاجتماعي الذي فرز هذه النصوص، لأن هذه النصوص هي مرآة للحضارة العربية والإسلامية بوجهيها السلبي والإيجابي.

وقد أفدت أيضاً من معطيات المنهج التاريخي في إلقاء الضوء على ما ورد في الليالي، وقد ساعدني هذا المنهج على فهم حركات الأبطال والجماعات الإنسانية في مجتمعات ألف ليلة وليلة ومواقفهم، لأن النصوص التاريخية التي استطعت الاطلاع عليها شكلت خلفية مرجعية مهمة ساعدتني على فهم نصوص الليالي، وكانت وسيلة من وسائل كشف ما خفي في هذه النصوص، وبالتالي كان لها الدور الكبير في تعليل الأحكام واستنتاجها. وعلى الرغم من أن قسماً من حكايات الليالي يوغل بعيداً في عمق الزمن التخيلي، فإن قسماً من هذه الحكايات يستمد مقومات أحداثه من أحداث التاريخ. بل نجد أحياناً أن غير حكاية من حكايات الليالي ترد بالأحداث نفسها في المصادر التاريخية، فعلى سبيل المثال نجد أن حكاية «الحجاج بن يوسف الثقفي مع هند بنت النعمان» ترد بالأحداث نفسها وأسماء شخوصها عند الأبشيهي في كتابه: «المستطرف في كل فن مستظرف»، وترد عند الأصفهاني في كتابه: «الأغاني»، وعند ابن عبد ربه الأندلسي في كتابه: «العقد الفريد». نجد أن إحدى الحكايات المتشعبة من حكاية «الأحدب وملك الصين»، وهي حكاية «التاجر البغدادي مع إحدى جواري السيدة زبيدة»، تتقاطع بشكل واضح مع إحدى حكايات التنوخي في كتابه: «الفرج بعد الشدة»، والتي يسميها التنوخي بـ: «قسم أن يغسل يديه أربعين مرة إذا أكل زيرباجة». ونجد أن حكاية: «المأمون ورغبته في هدم أهرامات مصر» ترد بالأحداث نفسها، وباختلاف جد طفيف في أسماء شخوصها، عند المسعودي في كتابه: «أخبار الزمان»، بالإضافة إلى عدد غير قليل من الحكايات الأخرى التي ترد في مصادر تاريخية متعددة.

أما مصادري ومراجعي في هذا الكتاب فهي كثيرة، بحيث يبدو الحديث عنها طويلاً، ولذا فقد اكتفيت بالإشارة إليها بكل أمانة في هوامش الكتاب، بالإضافة إلى فهرس المصادر والمراجع والدوريات في آخر الكتاب.

ويبقى أهم مصدر رئيس اعتمده هذا البحث في دراسة الموضوعات الرئيسة والفرعية، هو: ألف ليلة وليلة (بأجزائه الأربعة، طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت). غير أن هذه الطبعة ليست الوحيدة التي اطلعت عليها، فقد اطلعت على الطبعات الآتية من ألف ليلة وليلة: (طبعة المكتبة الشعبية، بيروت، د.ت، بأجزائها الأربعة)، و(طبعة دار مكتبة التربية، بيروت، بأجزائها الأربعة الطبعة السادسة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، والطبعة المهذبة التي أعدها رشدي صالح (دار الشروق، القاهرة، جزءان)، وهي طبعة ناقصة، وبالتالي كان طبيعياً أن لا يعتمدها هذا الكتاب.

أما سبب اعتمادي طبعة دار مكتبة الحياة فيعود إلى أنه بعد مقارنتي بين الطبعات الثلاث الأولى (مكتبة الحياة - المكتبة الشعبية - مكتبة التربية)، وجدت أن الفروق بين هذه الطبعات طفيفة جداً، وأن هذه الطبعات تكاد تكون متطابقة تماماً: في الحكايات، والأحداث، والمدن الواقعية والمتخيلة، وابطال من الملوك والخلفاء والنساء والتجار. من هنا بدا طبيعياً أن أكتفي بنسخة واحدة أعتمدها من أول الكتاب إلى آخره، وهي طبعة دار مكتبة الحياة. ولعل السبب الرئيس في اختيار هذه الطبعة هو ببساطة: أن الخط الطباعي الذي طبعت به هذه الطبعة أوضح من خلال كثافته اللونية، مقارنة بخط الطبعتين السابقتين. وهذا الخط، كما أرى، مريح للعينين، ويجعل من القراءة فعلاً ممتعاً وجذاباً، أكثر مما لو كان الخط الطباعي غير واضح.

بدأت كتابي بمدخل تحدثت فيه عن فعل السلطة عبر التاريخ، ودورها في استعباد الناس وإذلالهم، وتشويه العلاقات الاجتماعية والإنسانية في ما بينهم، حتى تتمكن من قيادتهم، وأثبت بعض تعريفات السلطة من خلال المراجع، وذكرت بعض الشروط التي يجب أن تتوافر في الحاكم أو الخليفة، حتى يعيش رعاياه في أمان من بطشه، تأسيساً على آراء الفلاسفة والفقهاء الإسلاميين، ثم حاولت أن أدرس بعض ملامح سلطة الحكام المهمين في ألف ليلة وليلة كما أبرزتها.

ونظراً لأن حكام مدن الليالي كثيرون جداً، فقد اكتفيت بإبراز أهم الملامح السلطوية لبعض الخلفاء والحكام، وركزت على الحكام العرب تاريخياً. ومن هؤلاء الحكام: الخليفة العباسي هارون الرشيد، وابنه الخليفة عبد الله المأمون، والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، والحجاج بن يوسف الثقفي والي الخليفة عبد الملك بن مروان على العراق. وعرجت على بعض الملامح الاستبدادية للملك غير معروف تاريخياً وهو الملك عمر النعمان.

ويأتي تركيزي على هؤلاء الحكام، لأنهم أهم الحكام الذين يأخذون مساحات واسعة من السرد الحكائي، إذ تحتفي حكايات ألف ليلة وليلة بهم احتفاء واضحاً يفوق احتفاءها بغيرهم من الحكام، ولأن الحديث عنهم في الليالي كان متعدداً ومتشعباً فقد ساعدني هذا التعدد على أن أدرس ملامحهم المتعددة والواضحة في الحكايات التي ذكرتهم. فالخليفة هارون الرشيد يكاد يكون محوراً رئيساً تدور حوله كثير من حكايات ألف ليلة وليلة، وهو حاكم متعدد المواهب والملامح، ويجمع كثيراً من التناقضات في آن، ويبدو حضوره قوياً طاغياً على كل من حوله، بينما تبدو شخصية ابنه الخليفة عبد الله المأمون شخصية رئيسة نامية متعددة الملامح والوجوه، فهي شخصية حكيمة وعاقلة وخبيرة بفن السياسة، ومتسامحة وقادرة على أن تعفو عن المعارضين السياسيين لحكمها، وهي في مواضع أخرى تبدو شخصية عابثة لاهية عاشقة للفن والموسيقى، ومرة أخرى تبدو قوية وحازمة تفرض هيبتها على جميع من حولها، وبالتالي فإن هذه الشخصية تجمع ملامح مشتركة لعدة حكام من حكام الليالي.

أما الخليفة عمر بن عبد العزيز فإنه يُمثّل نموذج الحاكم الأكثر عدلاً من بين حكام الليالي، فصورته العادلة تُمثّل في النهاية آمال الطبقات الفقيرة المسحوقة، وتطلعاتها صوب الحق والخير والعدل. أما شخصيتا الملك عمر النعمان والحجاج بن يوسف الثقفي، فإنهما تمثلان أهم الرموز

نصوص ألف ليلة وليلة تظل نصوصا خالدة على مر العصور، وقادرة على أن تكون منبعاً ثراً لكثير من النصوص الإبداعية الحديثة، سواء في الشعر، أو في القصة، أو في الرواية، أو في المسرح، أو في السينما

الاستبدادية السلطوية في حكايات ألف ليلة وليلة. الرموز التي تطمح الطبقات الشعبية إلى الانتقام منها، واسقاط نظام حكمها. والسخرية بها. ومن هنا فإن دراسة ملامح هاتين الشخصيتين يمكن أن تشكل محاور بديلة من دراسة ملامح كثير من حكام الليالي الذين يتشفون معهما في ملامح الظلم والاستبداد والجبروت والاعتداء على حريات مواطنيهم.

إن دراسة ملامح هؤلاء الحكام يمكن أن تقدم صورة واضحة عن جميع خلفاء مدن ألف ليلة وليلة وحكامها، سواء كانوا واقعيين أم من نسيج الخيال. وبالتالي كان التركيز عليهم من دون غيرهم. هذا من جهة. ومن جهة أخرى فقد اكتفيت بدراسة ملامحهم منعاً للتكرار والإطالة. لأن دراسة ملامح الحكام الآخرين لن تضيف جديداً إلى هذا الكتاب.

وحاولت إبراز الوجه الاستبدادي لبعض نساء السلطة في ألف ليلة وليلة. ومن هؤلاء النساء: السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد. وجارية مستمدة من جواريها. وملكة أسطورية من ملكات ألف ليلة وليلة. وهي الملكة منار السنا. وأميرة أخرى غير معروفة تاريخياً. وهي الأميرة دنيا بنت الملك شهرمان. وهذه النساء يمكن أن تكون أهم الرموز الاستبدادية من بين نساء ألف ليلة وليلة جميعها. ولذا فقد اكتفيت بدراسة ملامحهن من دون غيرهن من النساء السلطويات الأخريات.

وعرجت على أهم ملامح بعض النساء السلطويات الفاسدات الزواني، وبعض ملامح الإيديولوجيا الرجولية العادية لهن. ولم أدرس ملامح المرأة السلطوية العادلة الورعة، الأم والأخت والزوجة الوفية المستقيمة في أخلاقها وسلوكها، لأن حكايات ألف ليلة وليلة تكاد تخلو من هذا النموذج. وحاولت أن أبين إلى أي مدى تمارس النساء الحميلات من سلطة قوية على رجال السلطة. ثم أنهيت الفصل بدراسة تحت عنوان: سلطة الحكاية وسلطة القتل في ألف ليلة وليلة، درست فيها مدى تأثير سلطة الحكاية العجائبية على رجال السلطة، ودورها في إنقاذ الشخوص الرواة من بطش رجال السلطة المروي لهم.

الخاتمة

تقوم ألف ليلة وليلة في بنية حكاياتها على مبدأ التناليات الضدية: الخير والشر، الفقر والغنى، العدل والظلم، الواقعي والتخيلي، الأمان والطمأنينة والخوف وفقدان الأمان، والأفراح الكبيرة والأحزان الكبيرة... الخ. وتتوزع هذه التناليات في معظم الفضاءات التي يرتحل السرد منها وإليها. وقد أسهمت هذه التناليات في جعل نصوص ألف ليلة وليلة تنفتح على مزيد من التناقضات والاحتمالات، وتستوعب أنماطاً عديدة من الشخوص المتلاقية المتحاورة تارة، والمتصارعة المتناقرة تارة أخرى. إذ تتحرك هذه الشخوص في فضاءات مكانية تحمل أيضاً مزيداً من التناقضات. فعلى سبيل المثال يلاحظ أن مدن ألف ليلة وليلة آمنة وغير آمنة في الوقت نفسه. والملك أو الخليفة أو الحاكم فيها عادل حكيم تارة، سفيه أحمق ظالم مغرور تارة أخرى، إلا أنه في غالب الأحيان ظالم باطش، تزق سريع الغضب. ويلاحظ أن قسماً من سكان المدينة متدينون ورعون يخافون الله، وأن القسم الآخر من سكان هذه المدينة شهوانيون وفاجرون ولصوص ومحتالون، لا هم لهم إلا ارتكاب كل ما هو محرم ومنكر. ويبدو أن هذا التناقض طبيعي جداً، طالما أن النفس الإنسانية لا تستقر على حال واحدة في مسيرتها وعلاقاتها وقيمها. فهي متحركة ضمن مجموعة من القيم والمفاهيم والسلوكيات المتسعة والمتناقضة في آن.

إن هذه التناليات ستسهم في أن تكون الأحكام والنتائج التي يفرزها هذا الكتاب قابلة لمزيد من التغاير والتناقض، وبالتالي ليست نهائية. وقد تكون في موضع من المواضع تؤكد مقولة ما، لكنها في موضع آخر تنفي هذه المقولة، ليس رغبة في النفي أو التناقض، بل لأن نصوص ألف ليلة وليلة تفرز هذا التناقض، نظراً لمفاهيمها ومقولاتها المتناقضة المتغايرة من حكاية إلى أخرى، فما يصح قوله في تحليل إحدى الحكايات قد لا يصح في تحليل حكاية أخرى.

إن الباحثين في ألف ليلة وليلة لا يخرجون بنتائج نهائية، وقلما تأتي دراسة أحدهم مشابهة لدراسة آخر، بل تحمل معظم دراساتهم مزيداً من الاحتمالات. وهنا حاول هذا الكتاب، ومن خلال قراءة نصوص ألف ليلة وليلة كاملة ولأربع مرات، أن ينطلق من بنية نصوص الليالي نفسها، وأن يعتمد بعض المراجع والمصادر التاريخية التي تحدثت عن المدينة العربية الإسلامية، وأن يقيم تحليلاته ونتائجه من داخل هذا التناقض الذي تفرزه نصوص ألف ليلة وليلة بعدتها وسلطاتها، وعلاقاتها وقيمها واستقامة سكانها وشذوذهم وانحرافهم في آن. وإن ظهر في هذا الكتاب بعض الآراء المتناقضة أو النتائج المتغايرة من حكاية إلى أخرى، فإن ذلك يعود، بالدرجة الأولى إلى بنية النصوص الحكائية وتشعبها، وتباين رؤاها الإيديولوجية التي بينتها مجموعة من الرواة الشايقين في مشاربهم الثقافية، وبنياتهم الذهنية، وقناعاتهم الإيديولوجية.

إن نصوص ألف ليلة وليلة بتناميها وتشابكها، وجرأتها وخروجها عما هو سائد ومألوف من نصوص خجولة مستزمتة اعتادها القارئ المتزمت، تمثل نسقاً معرفياً حكائياً واقعياً واسطورياً غرائبياً قل نظيره في الأدب العربي القديم والحديث، وربما في الأدب العالمي. فهذه النصوص بتناقض شخوصها، وصراعاتهم وجرأتهم وجنونهم وتمردهم، واستكانتهم واستسلامهم المطلق للغيب والسلطة أحياناً، وقدراتهم الخارقة للعادة والمألوف أحياناً أخرى، هي نصوص خصبة منفتحة على الأزمنة والأمكنة المتباعدة، والحضارات الأخرى بثقافاتها وآدابها وفنونها. ومن هنا فإن خصوبتها قادرة على أن تشكل خلفية معرفية مرجعية لكثير من الأعمال الإبداعية المعاصرة، من شعر وقصة ورواية ومسرح. فقارئ ألف ليلة وليلة يجد نفسه أمام حقل ثقافي متعدد المشارب، يتوغل إلى أبعد الحضارات، يتثاقف ويتأثر، ثم يتلاقى ويتحاور، ليتسكب هادئاً مندياً على الثقافات والحضارات العربية والإسلامية.

إن نصوص ألف ليلة وليلة نصوص مثيرة جريئة. إنها تخدش أعماق الإنسان في حاضره وماضيه، وما توسوس به نفسه الأمارة بجميع المعاصي، ولا تخشى أحداً. تعلن مشروعها الإيديولوجي لتدين النساء والرجال، والمدن وقيمها، والملوك واستبدادهم، والأسواق وعلاقاتها الاجتماعية والتجارية، إنها شمولية في إدانتها وفي امتدادها إلى أبعد الحضارات وأقربها، فعلى سبيل المثال نجد أن المرأة في ألف ليلة وليلة هي كل نساء الحضارات الأخرى، وخطابها الكيدي والاحتيالي هو خطاب المكيدة أنى كان - في أي زمان وأي مكان - فلم تترك نصوص ألف ليلة وليلة امرأة من نسائها

الخليفة هارون الرشيد يكاد يكون محوراً رئيساً تدور حوله كثير من حكايات ألف ليلة وليلة، وهو حاكم متعدد المواهب والملامح، ويجمع كثيراً من التناقضات في آن، ويبدو حضوره قوياً طاغياً على كل من حوله

تسود في مدن ألف ليلة وليلة كل المحرّمات، فهناك الخمّارات، وقتل النفس التي حرّم الله قتلها، والزنى والشذوذ الجنسي، والاستبداد في أوجه، وهناك الملوك والخلفاء المسلمون الذين يكرعون الخمرة أرطالا

المنتميات إلى حضارات ومذاهب عديدة إلاّ وكشفت عن أهم الجوانب الدفينة في أعماقها، ولم تترك سلطاناً أو حاكماً من حكّامها إلاّ وتوغّلت إلى أبعد دهاليز قصوره ومقصوراتها الخاصّة، وعرّت نساءه وجواريه الحظايا، وطقوس فرحه وحزنه وجسده، وخطاباته الفكرية والسياسية، وعلاقاته مع أفراد شعبه، وسلّطت الضوء على طعامه الفاخر، وخموره المعتّقة، فشعّت متلألئة شهيّة على وقع الصاجات والدفوف، وقامات الجواري المليئات جمالاً اللواتي تهتزّ مغناجة مثيرة. فهذه النصوص تتمرّد ثائرة على معظم الخطابات التاريخية، والقصصيّة، والحكائية التي سبقتها والتي عاصرتها، غير أنّ هذا التمرّد يبقى مغلّفاً بشال من الحرير المعطّر سحراً وأساطير. إنّ لها القدرة السحرية على التوغّل إلى أعماق الذات لتعري خطاباتها الفكرية، وتناقضاتها، وأدق خفاياها، وسكينتها واستسلامها المطلق لقدرها الغيبي، ولسلطات مدنها الغاشمة، ومن ثم لتنقلها إلى مدن جديدة سحرية على أجنحة خيال أسطوري حالم تارة، متوثّب جامح تارة أخرى، فتحلّق هذه الذات حالمة بالنساء الشهيّات، والثراء الفاحش، مع الجنّ والأحصنة الطائرة المسحورة، والمصابيح السحرية، وخواتم شبيك لبيك (المال والقصور وجواري الأرض بين يديك، اطلب تُطع، إن أنت دعكت هذا الخاتم السحري، أنا المارد خادم هذا الخاتم القادر على فعل العجائب، سأكون حالاً بين يديك)، وتحلق صوب المدن الفاضلة التي لا خوف فيها ولا بطش ولا استبداد، عندها تسكن الروح عميقاً، وتستسلم لحالة من الطمأنينة والرضى، والأحلام الشفيفة التي لن يتحقّق منها شيء، لأنّ واقع مدن ألف ليلة وليلة واقع مُهان محكوم بحفنة من الحكّام الظلمة، الذين لا يعملون إلاّ على تحقيق مصالحهم الخاصّة، وإشباع نزواتهم المتأجّجة دائماً.

إنّ معظم رواة ألف ليلة وليلة مؤدلجون إسلامياً، فهم يتعاطفون مع الدين الإسلامي، ويفضّلونه على بقية الأديان الأخرى، ويؤكّدون أنه لا نجاة من الحياة الدنيويّة المليئة بالشرور والآثام، ولا انتقال إلى عالم الملكوت الأعلى إلاّ باعتناق الدين الإسلامي الذي هو خاتمة الأديان وخيرها، ويطمحون إلى سيادة الإسلام فوق بقاع المدن كلها؛ الواقعية والتخيليّة الأسطوريّة، ولذا فهم يبثّون مفاهيم الإسلام وقيمه وأخلاقياته من خلال السرد الحكائي، إلاّ أنّه من المستغرب أنّ هؤلاء الرواة المتعصّبين للإسلام لا يدينون مدنهم الإسلامية الغارقة بالمعاصي المنافية لأخلاق الإسلام، إذ تسود في مدن ألف ليلة وليلة كل المحرّمات، فهناك الخمّارات، وقتل النفس التي حرّم الله قتلها، والزنى والشذوذ الجنسي، والاستبداد في أوجه، وهناك الملوك والخلفاء المسلمون الذين يكرعون الخمرة أرطالاً، وينكّلون بأفراد شعوبهم، ويقضون معظم أوقاتهم بين أحضان جواريهم وساريهم، ولا يتوانون في الزواج بأيّة امرأة جميلة، إمّا بالرضى وإمّا بالاغتصاب أو الاحتيال، وهم مستعدّون للزواج بكل امرأة جميلة، حتى ولو كانت عاهرة. وعلى الرغم من كل ذلك نجد أنّ بعض هؤلاء الرواة يتغاضون عن سلوك هؤلاء الحكّام، ويتجاوزون عن أخطائهم، وكأنّ شيئاً لم يكن، في حين أنّ هؤلاء الرواة يسارعون في الطعن بأخلاق الحكّام غير المسلمين، ويقللون من شأنهم، ويدينون أخطاءهم، ومهما كانت بسيطة.

وليست حكايات ألف ليلة وليلة ترفاً لفظياً، أو رحلة وصفيّة في الزمان والمكان، بل إنّ لها غايات وظيفيّة، فالسرد الحكائي لا ينمو ولا يدخل فضاءات مدن ألف ليلة وليلة إلاّ ليعبّر عن أطروحات فكرية وسياسية وغايات أخلاقية في كثير من الأحيان. ومعظم رواة الليالي يحمّلون السرد الحكائي كثيراً من المقولات الفكرية والإيديولوجية التي يؤمنون بها، وبالتالي ينفون مقولات أخرى يستهجنونها، ويدينونها.

إنّ رواة ألف ليلة وليلة، من خلال الوصف وقطع السرد ووصله، ومن خلال تداخل الحكايات فيما بينها، ومن مواقف الأبطال وطبيعة تفكيرهم، يكرّسون كلّ معارفهم، وما يؤمنون به، ليبثّوا خطاباتهم الإيديولوجية المعادية لخطابات أخرى.

هذا ويقدّم رواة ألف ليلة وليلة نساء مدنهم السلطويات وغير السلطويات على شكل نماذج مثيرة طاغية الجمال، بحيث تبدو هذه النساء أجمل من حوريات الجنة، فالقمر يخجل من جمالهنّ، والشمس تحسدهنّ على وضاءة وجوههنّ، أمّا أكفالهن الثقيلة فإنها تبدو وكأنها كثبان من الرمال، وتبدو نهودهن أكثر تماسكاً وتكوراً من كل رمان مدن ألف ليلة وليلة، وكل واحدة منهنّ ذات خدّ أسيل وقدّ مليح. وهذا التقديم في بنيته العميقة يدل على نزعة هؤلاء الرواة الشبقيّة التي تشير إلى أنّ هؤلاء الرواة، الذين هم ممثّلو القطاع الذكوري المهان في ألف ليلة وليلة، قد عانوا عبر تاريخهم الطويل من حرمان جنسي مزمن، وقهر تاريخي وضعهم في طبقة متدنية محرومة، وحرمهم من هاته النسوة المثيرات اللواتي اعتبروهنّ أعظم وأغلى السلع التي يطمح هؤلاء الرجال إلى امتلاكها، في حين أنّ أيّ ملك أو أمير كان باستطاعته أن يحصل على ما يشاء من هاته النسوة المثيرات، طالما يملك المال والسلطة. غير أنّ هؤلاء الرواة لم يقفوا عند هذه الملامح الجمالية لهاته النسوة الطاغيات إثارة وتكورات لحمية فحسب، بل رأوا أنّ معظم هاته النسوة المثيرات فاسدات وعاهرات، ومنقادات لرغباتهن الشهوانية المسعورة. ويتقن فنون المكايد والاحتيال بامتياز - وبطبيعة الحال هناك استثناءات طفيفة -. أمّا ملامح نساء السلطة، بالإضافة إلى الملامح السابقة، فهي ملامح استبدادية باطشة، إذ لا تتوانى هاته النساء في البطش بأقرب المقرّبين منهنّ، فبعضهنّ يفوق الرجال السلطويين بطشاً وظلماً، على أنّ استبداد هاته النسوة، في المحصلة الأخيرة، هو نتيجة لاستبداد الرجال، ومستمدّ منه، لأنّ المرأة السلطوية تستمدّ قدرتها على البطش، بمن في قصرها من العبيد والجواري وبمن في مدينتها من المواطنين، من سلطة زوجها المطلقة، بوصفه الرأس الأعلى، وصاحب الكلمة الأولى والأخيرة في دولته. وأمام استبداد نساء السلطة في ألف ليلة وليلة يُلاحظ أنّ الرواة يجترئون عليهنّ، ويصفون بعضهنّ بالزواني والخبيثات.

ونلاحظ في حكايات ألف ليلة وليلة أنّ ثمّة قطيعة إنسانية تعمل السلطة على تكريسها في علاقاتها بالطبقات الأدنى منها، وتتمثّل هذه القطيعة بالاحتقار والاضطهاد والجلد والتهديد بالقتل، والقتل، والإكثار من مظاهر الأبهة والثراء، والإكثار من اتّخاذ الحرّاس والحجّاب الذين يحيطون بالسلطة كظلّها.

بحيث يبدو رجال السلطة آلهة متوّجين بالأبّهة والعظمة، مما يجعل الطبقات الأخرى في حالة خوف دائم، وقناعة مطلقة باستحالة قدراتها على تغيير نظام السلطة أو الثورة عليها. فمعظم سلطات مدن ألف ليلة وليلة الإسلامية وغير الإسلامية لا تقرب إلاّ الأذلاّء الخانعين لها خنوعاً مطلقاً، والأعوان الباطشين المستبدين في آن، والمهرّجين والندماء المتملّقين، والأبواق المرددين إيديولوجيتها وعظمتها وحقها الإلهي في وراثة الحكم،

أمام استبداد نساء السلطة في ألف ليلة وليلة يُلاحظ أنّ الرواة يجترئون عليهنّ، ويصفون بعضهن بالزواني والخبيثات

والشعراء المنافقين المادحين مَدْحاً تكسبياً كاذباً.

إنّ للحكاية في ألف ليلة وليلة سلطة على الشخوص السلطويين المروي لهم، إذ تأسرهم هذه الحكاية بفتنة سردها، ونسائه الجميلات المثيرات، ومدنه، وحوادثه العجائبية التي تنشلهم من هموم السياسة والحكم، وتقذفهم صوب البلاد السحرية العجيبة. وسلطتها هذه تعمل على إنقاذ الرواة وأبطالهم من القتل، فالراوي أو البطل المحكوم عليه بالقتل - سواء أكان الحكم من قبل السلطة، أم من قبل شخص مستبدّ أقوى منه - يسارع إلى فداء نفسه بقصّ حكاية غرائبية مثيرة، وبعيدة في التخيّل، شرط أن تكون هذه الحكاية جديدة لم يسمع بها الشخص السلطوي المروي له. وعندما يسمع المروي له هذه الحكاية الجديدة المثيرة فإنّ أزمته الاجتماعية أو النفسية تنفرج أمام السرد العذب، ويتصالح مع الراوي، ويعفو عنه، وأحياناً يجعله من ندمائه الخاصين.

إنّ هذه الموضوعات التي تطرّق إليها هذا الكتاب ليست هي وحدها الموضوعات المهمّة في ألف ليلة وليلة، بل ثمّة مواضيع أخرى كثيرة - لم تُبحث بعد باستفاضة - وجديرة بالاهتمام والدراسة من قبل الباحثين، ويمكن أن تشكّل محاور رئيسة وفرعية لعدد غير قليل من الكتب والدراسات، ويبدو أن البحث في هذه الموضوعات ممتع وشيّق. وقد يكون من هذه الموضوعات ما يلي:

١. التناصّ بين حكايات ألف ليلة وليلة وبين المصادر الأدبيّة والتاريخية التي ذكرت كثيراً من حكايات ألف ليلة وليلة، وبتحويرات جدّ طفيفة. ومن هذه المصادر: الفرج بعد الشدة لأبي علي المحسّن بن علي التنوخي، والمستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، وأخبار النساء لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر الزرعي (ابن قيّم الجوزيّة)، والروض العاطر في نزهة الخاطر لمحمد بن أبي بكر بن علي النفزاوي، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ومصارع العشّاق لجعفر بن أحمد بن الحسين السرّاج، وتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) لمحمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي (ابن بطوطة).

٢. ملامح إيديولوجيا الرواة الإسلاميين، ومعاداتهم للمسيحيين واليهود والمجوس.

٣. ظاهرة اللهو والمجون في فضاءات قصور ألف ليلة وليلة.

٤. المقاييس الجمالية المرغوبة في نساء ألف ليلة وليلة كما تحدّدها أذواق الرجال الرواة.

٥. نشاط الحركة التجارية في ألف ليلة وليلة، وعلاقة التجار بطبقة السلطة، وملامح إيديولوجيا الرواة المعادية للتجار والتجارة من جهة، والمساندة لهم من جهة أخرى.

٦. تأثير ألف ليلة وليلة في الرواية العربية المعاصرة، وبخاصّة في روايات نجيب محفوظ وهاني الراهب وجمال الغيطاني ويوسف القعيد.

٧. تأثير ألف ليلة وليلة في المسرح العربي الحديث والمعاصر، وبخاصّة في مسرحيات توفيق الحكيم وعلي أحمد باكثير وألفريد فرج وسعد الله ونوس ومحمد الشرفي ونعمان عاشور.

٨. دور المال في مدن الليالي وعلاقات سكّانها، وتقديس بعض الشخوص له.

٩. الجريمة والقتل في ألف ليلة وليلة، وبخاصة جريمة بتر الأطراف.

١٠. ظاهرة الشذوذ الجنسيّ في ألف ليلة وليلة: مظاهرها، ودوافعها.

١١. التكرار في ألف ليلة وليلة، وذلك في وصف أشكال النساء، وطرائق احتيالهن، ووصف القصور، والتكرار في حركة الأبطال وفي أحداث بعض الحكايات.

١٢. طبيعة العلاقة بين السياسي السلطوي والمعرفي: الزهديّ والفقهي والديني، وانضواء المعرفي تحت جناح السلطوي من جهة، ورفض المعرفي للسياسي وإدانته، والابتعاد عنه من جهة أخرى.

وأمام ألف ليلة وليلة، هذا العمل الحكائي المتميّز، لا عجب أن يقف المستشرق الدانماركي ج. أوستروب(٣) مأخوذاً بالإعجاب والتقدير، ثم يقول: «فيما عدا الكتاب المقدّس لا توجد سوى كتب قليلة حققت انتشاراً واسعاً وطافت العالم بأرجائه مثل مجموعة الحكايات العربية الشهيرة، والتي عُرفت تحت اسم «ألف ليلة وليلة»، فمن جهة أولى اكتسبت أهمية مباشرة، لأنّه يكاد لا يوجد في معظم البلدان المتحضّرة من لم يقرأ هذا الكتاب بسرور واهتمام مرة واحدة على الأقلّ في حياته ويستوح منه عدداً كبيراً من الصور البرّاقة الرائعة والتي ظلّت على الدوام عالقة في ذاكرته، ومن جهة ثانية اكتسبت أهمية غير مباشرة لأنّ أجيالاً متعاقبة من الأدباء كانت تنهل مادتها من هذا النبع الذي لا ينضب».

هوامش

(١) هذه الأبحاث هي:

أ - المرأة وخطاب الجنس في ألف ليلة وليلة، مجلة المعرفة السورية، وزارة الثقافة، دمشق، العددان ٣١٦/ ٣١٧ أكتوبر، نوفمبر، ١٩٨٩م.

ب - مدخل إلى دراسة المرأة في ألف ليلة وليلة، مجلة الحياة الثقافية، وزارة الثقافة، تونس، العدد السابع والخمسون، العام ١٩٩٠م.

ج - خطاب الحب والجنس والسياسة وعلاقته بمكوّنات البنية الحكائية في ألف ليلة وليلة، مجلة دراسات عربية، دار الطليعة، بيروت، العددان ١٠/١١، أغسطس، سبتمبر، ١٩٩٠م.

د - مجتمعات ما تحت المجتمع - ألف ليلة وليلة، فضاء السرد، الجسد، المكان، مجلة كتابات معاصرة، بيروت، العدد الثالث عشر، ١٩٩٢م.

هـ - ألف ليلة وليلة - جدل الجنس والسلطة، مجلة الناقد، دار رياض الريّس، لندن، العدد الثاني والخمسون، أكتوبر ١٩٩٢م.

و- نقد خطاب الحب والسلطة في «تاريخنا الليلي»، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، العدد الثاني والسبعون، ابريل، يونيو، ١٩٩٣م.

ز - بنائية الأمثلة الوظائفيّة في الحكاية الشعبيّة، حكاية علاء الدين أبي الشامات/انموذجاً/، مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، العدد الثالث والثمانون، صيف ١٩٩٥م.

(٢) في خبر صحافي وتعليق على أهميّة «ألف ليلة وليلة» والأبحاث حولها، وتحت عنوان «مذاق ألف ليلة وليلة» - دون ذكر لاسم معدّ الخبر - قام معدّ الخبر بنقل رأي الباحثة المصريّة أماني أبو الفضل، التي أعدّت رسالة ماجستير حول ألف ليلة وليلة، والذي يقول: «إنّ «ألف ليلة وليلة» استوفت حقّها تماماً (من البحث) وآن الأوان لإعطاء الأعمال العربية الأخرى حقّها من الدراسة».

- يُنظر: مجلة الشاهد، شركة الشاهد للنشر المحدودة، نيقوسيا/ قبرص، العدد الخامس والسبعون، السنة السابعة، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١م، ص ٩٧.

(٣) عن/مومسن، كاترينا: غوته وألف ليلة وليلة، ترجمة د. أحمد الحمو، منشورات وزارة التعليم العالي، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٠م، ص ٤٠. ولم تذكر اسم المرجع الذي اقتبست منه. ■

الراوي أو البطل المحكوم عليه بالقتل - سواء أكان الحكم من قبل السلطة، أم من قبل شخص مستبدّ أقوى منه - يسارع إلى فداء نفسه بقصّ حكاية غرائبية مثيرة، وبعيدة في التخيّل

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفن
مجلة شهرية، العدد الواحد والاثنون - السنة الثامنة، أغسطس ٢٠٠٦، الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 8 - Issue 91 - August 2006

السنة الثامنة
العدد الواحد والتسعون
أغسطس ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتاب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

حقوق نشر جميع المواد والرسوم محفوظة

محتويات العدد:

- سلامة أحمد سلامة ٤
«سراب الديمقراطية..»
- أيمن الصياد ٦
قراءة: «خرائط التيه»
- نعيم قاسم ١٠
«مستقبل حزب الله»
- مازن النجار ١٤
«سنى/ شيعى.. عثمانى/ صفوى.. عربى/ فارسى (تباين المشروعات)»
- إدوارد إريسينشى ولانس جينوت وفيليبا تاونسند ١٨
«إنجيل الخائن»
The Gospel of Judas from Codex Tchacos، تأليف: رودلف كاسر، ومارفين ماير، وجريجور وورست
- محمد سعيد رمضان البوطى ٢٤
«اليقينُ الإسلامى والمعرفة الغربية»
- عبد القادر ياسين ٢٨
«مهنة المتاعب فى فلسطين»
صحافة فلسطين والحركة الوطنية فى نصف قرن (١٩٠٠ - ١٩٤٨)،
تأليف: عايدة النجار
- عبدالله عبدالسلام ٣٢
«التعليم.. دين الشرق الأقصى الجديد!»
١- *Education in Korea 2005 - 2006*، إصدار: وزارة التعليم الكورية
- جيسون إبستاين ٣٦
«أكل المطاعم»
١- *Heat: An Amateurs Adventures as Kitchen Slave, Line Cook, Pasta-Maker, and Apprentice to a Dante-Quoting Butcher in Tuscany*، تأليف: بيل بوفورد
- جارى ويلز ٤٤
«رجال أم فئران؟(!)»
Manliness، تأليف: هارفى سى مانسفيلد
- نادر فرجانى ٤٧
«الشق الأفضل»
- محمد عبدالرحمن يونس ٤٩
«فى ألف ليلة: نساء القصر»
ألف ليلة وليلة، مؤلف مجهول
- بل ماكيبن ٥٦
«أمل الشبكة العنكبوتية»
Crashing the Gate: Netroots, Grassroots, and the Rise of People-Powered Politics، تأليف: جيروم أرمسترونج وماركوس مولتساز زنيجا
- أبو المعاطى أبو النجا ٦٢
«معتوق الخير»
معتوق الخير، تأليف: حجاج حسن أدول
- السيد أمين شلبى ٦٦
«أزمة الدور الأمريكى»
America at the crossroads، تأليف: فرانسيس فوكوياما
- إصدارات جديدة ٧٢
- رسائل ٨٠

كتّاب العدد:

- أبو المعاطى أبو النجا.. أديب مصرى.
- إدوارد إريسينشى.. باحث متخصص فى شئون الأديان.
- السيد أمين شلبى.. سفير مصرى سابق. الرئيس التنفيذى للمجلس المصرى للشئون الخارجية.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- بل ماكيبن.. صحفى أمريكى.
- جارى ويلز.. مؤرخ وناقد أمريكى.
- جيسون إبستاين.. باحث أمريكى.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عبدالقادر ياسين.. صحفى فلسطينى.
- عبدالله عبدالسلام.. صحفى.
- فيليبا تاونسند .. باحث متخصص فى شئون الأديان.
- لانس جينوت.. باحث متخصص فى شئون الأديان.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى.
- محمد سعيد رمضان البوطى.. أستاذ بجامعة دمشق.
- محمد عبد الرحمن يونس .. محاضر فى جامعة الدراسات الأجنبية ببكين.
- نادر فرجانى.. مدير مركز المشكاة والمؤلف الرئيسى لتقرير «التنمية الإنسانية العربية».
- نعيم قاسم.. نائب الأمين العام لحزب الله.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى - سعد الدين شحاتة - أحمد اللباد

يحظر النسخ أو الطبع أو التصوير على دعامات ورقية أو عبر الحاسبات لكل أو بعض المقالات المنشورة أو أجزاء منها، بغير إذن كتابى مسبق من الناشر.

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى
اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩. فاكس ٤٠٤٨٥٤٦. subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارا
١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنا
٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دين
- المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
tria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بال

فى ألف ليلة وليلة نساء القصر

محمد عبدالرحمن يونس

[١]

** ليست نساء السلطة فى ألف ليلة وليلة مستسلمات طاعنات فحسب، بل يوجد فيهن الزوانى اللواتى يخنّ أزواجهن كلما سنحت لهن الفرصة لذلك. فهن يخططن لهذه الخيانة ويحكمن على أزواجهن ليدعين إلى عدم الخيانة، وبخاصة إذا كانت هذه النسوة سلطانات، وغير معروفات فى الواقع التاريخى مع العلم أن هؤلاء الأزواج كما يصورهم الرواة أوفياء لهن، ومؤمنون ثقة فى بعض الأحيان. ففى حكاية الحشاش مع زوجة أحد الأكابر، يصور الراوى زوجة أحد الرجال المهمين فى حكم السلطة بصورة المرأة الزانية التى تستكثر من زوجها شر انتقام لأنها ضبطته يزنى بإحدى جواريها، إذ أقسمت بعينى ألا تستكثر منه، وتزنى مع أقذر الناس وأحطهم منزلة. تقول المرأة: «اتفق أنى كنت أنا وإياه قاعدين فى الجنينة داخل البيت، وإذا هو قد قام من جانبى وغاب عنى ساعة طويلة. فاستبطأته، فقمت فى نفسى لعله يكون فى بيت الخلاء. فتوجهت إلى بيت الخلاء، فلم أجده. فدخلت المطبخ فرأيت جارية فسألتها عنه فأرتنى إياه وهو راقد مع جارية من جوارى المطبخ. فعند ذلك حلفت يمينا مغلظة أننى لا بد أن أزنى مع أبيع الناس وأقذرهم. عندها تخرج المرأة صحبة خدمها وحراسها ليجوسوا خلال الشوارع والأزقة باحثين عن طلب المرأة وما إن يشاهدها الناس حتى يفروا مذعورين من بطشها. يقول الحشاش: فوجدت الناس هاربين، فقال واحد منهم: ادخل هذا الزقاق لئلا يقتلوك. قلت ما للناس هاربين؟ فقال لى واحد من الخدم: هذا حريم لبعض الأكابر. وصار الخدم يدفعون الناس من الطريق أمامها، ويضربون جميع الناس ولا يبالون بأحد.

ويمكن أن يتساءل متلقى الحكاية: طالما أن المرأة السلطوية تخرج باحثة عن رجل وسيع لتزنى به، انتقاماً من زوجها الزانى، فما ذنب هذا القطاع العريض من الناس الذى يتجول فى الشوارع باحثاً عن لقمة عيشه، حتى يبتعد مذعوراً عن طريق هذه المرأة المستبدة، وحتى يهان ويضرب، من دون أن يرتكب أى ذنب؟. يبدو أن المستبدين والطغاة فى ألف ليلة وليلة، رجالاً ونساء، كانوا يجدون لذة فى تعذيب الناس وقهرهم، وكان يحسون بالرضى يملأ نفوسهم، وهم يشاهدون الناس البسطاء يفرون مذعورين أمامهم. ويبدو أن هذا الفرار كان يعزز لديهم هذا الغرور الأحمق بعظمتهم ومكانتهم السلطوية. فالاستبداد يضعف الأخلاق الحسنة أو يفسدها أو يمحوها. ومن هنا فإن المستبد الذى تضعف أخلاقه أو تفسد، لا يهمه إن أهين شعبه، أو قهر جراء أفعاله الاستبدادية. فالمرأة المستبدة زوجة لأحد رجال السلطة المهمين، وقد سمحت لخدمها بضرب جميع من يمشى فى الشارع الذى تمشى فيه، وأمرت خدمها أن يهينوا الحشاش، ويربطوه، ويأخذوه عنوة إلى منزلها: «وإذا بالطواشى جاء إلى وقبض علىّ، فتهاربت الناس، وإذا بطواشى آخر أخذ حمارى ومضى به. ثم جاء الطواشى وربطنى بحبله وجرنى خلفه، وأنا لم أعرف ما الخبر، والناس من خلفنا يصيحون ويقولون: ما يحل من الله، هذا رجل حشاش فقير الحال ما سبب ربطه بالحبال؟».

وقد يكون راوى الحكاية السابقة أضفى على سلوك المرأة نوعاً من الغرائبية والتخيل، قاصداً بذلك إثبات أيديولوجيته المعادية لاستبداد نساء السلطة فى ألف ليلة وليلة، لكن قارئ هذه الدراسة يدرس فعل السلطة، لا باعتباره فعلاً سحرياً وأسطورياً، بل باعتباره فعلاً يمكن أن يتحقق فى بنية الزمان والمكان، التاريخى والواقعى، لأن الإشارات التاريخية الكثيرة لممارسات السلطة من اضطهاد وتعسف وقهر لشعوبها فى العصور، تثبت أن ما ورد فى ألف ليلة وليلة من ممارسات سلطوية استبدادية يمكن أن يكون له خلفية تاريخية ذات علاقة بواقع معيش عاصره الراوى، بعلاقاته السياسية والاجتماعية، والاستفادة منه فى تشكيل حكايته. ف. فحبص ألف ليلة وليلة تتبع أحداثها من حاجات المجتمع وتريسم وقائعها من خلال التطلعات التى جسدتها الحاجات (...) وهذا يعنى أن مادة القصص هذه مرتبطة بنشأة الشعب العربى، وموصولة بأحداثه التى عاصرها (...) وبإنسانه الذى كان مدار هذه القصص ويطل تلك الحكايات والأشكال». على حد تعبير الدكتور نورى حمود القيسى.

وحتى لا تحنث المرأة السلطوية باليمين التى قطعتها على نفسها، فإنها قادت الحشاش مربوطاً، محبوراً إلى قصرها، وأدخلته الحمام، وألبسته أجمل الملابس الفاخرة، وأمرت جواريها أن يرششنه بماء الورد تمهيداً لتحقيق فعل الزنى، والانتقام من زوجها. «ثم بعد ذلك أشارت إلى بعض الجوارى أن يفرشن لنا فى مكان، ففرشن فى المكان الذى أمرت به، ثم قامت، وأخذت بيدى إلى ذلك المكان المفروش وقامت وقمت معها إلى الصباح، وكلت كلما ضممتنى إلى صدرى اشم منها رائحة المسك والطيب، وما اعتقد إلا أنى فى الجنة أو أنى أحلم فى المنام». فالمرأة السلطوية تزنى بالحشاش القذر تحدياً لزوجها وانتقاماً منه، لأنها تعى أن وضعها السلطوى يحميها، وأنها قادرة على أن تمارس هذا الفعل بكل جرأة، لأنها واثقة من قدراتها على إخضاء الحشاش فى مخابئ القصر، إذا ما داهمها زوجها، وهى واثقة من قدرة جواريها المقربات على الاحتيال، والإسراع بنجدتها إذا ما حضر زوجها بشكل مفاجئ. «فبينما أنا نائم عندها ليلة ثامن يوم وإذا بجارية دخلت وهى تجرى وقالت لى: قم اطلع إلى هذه الطبقة فطلعت فى تلك الطبقة».

ويبدو أن المرأة السلطوية، التى لا يذكر الراوى اسماً لها اعتقدت أنها لا تنتقم من زوجها، أو تسترد كرامتها إذا رقدت مع الحشاش ليلة واحدة، بل إنها أسرفت فى الانتقام منه، واستمرات النوم مع الحشاش، وتلتقاه ليال متواصلة كما يشير الراوى. وإذا كان زوجها السلطوى قد سلك مسلكاً فاسداً، ومارس فعل الزنى فإنها بزنه، وتمادت فى طريق الفساد، ولم تكتف بذلك فحسب، بل أذلته بسطوة جسدها الجميل، وجعلته يقبل الأرض بين يديها، عندما صفحت عنه، وسمحت له ثانية بامتلاك هذا الجسد. يقول الراوى: «فتقدم (الزوج) إلى الباب وترجل ودخل القاعة، فرآها قاعدة على السرير، فقبل الأرض بين يديها ثم تقدم وقبل يدها فلم تكلمه، فما برح يخضع

ألف ليلة وليلة
مؤلف مجهول
منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت

حامد
التوي
2006

مندفعات فى فسادهنّ الأخلاقىّ ورغباتهنّ المسعورة المتهالكة على الجنس ومع أحطّ الرجال، مع ملاحظة أنّ هذه الأيديولوجيا الرجوليّة هذه لا تدين المرأة الأميرة العازبة، فيما إذا اندفعت متهالكة لتحقيق فعل الجنس مع الأمير أو الملك العازب، بل نجد أنّ الراوى يشجّع هذا التهالك، ويهيئ له جميع الظروف والعوامل المساعدة لتحقيق هذا الفعل، فها هو يشجع بطله تاج الملوك على امتلاك الأميرة العازبة دنيا بنت الملك شهرمان امتلاكاً جنسياً ويشتهى له أن ينام بين نهديها لأنّه أهل لذلك، ويثبت هذا الاشتهاء على لسان العجوز مربيتها، حين تصف لها بطله تاج الملوك قائلة: «كأنّ رضوان فتح أبواب الجنان وسها فخرج منها (أى تاج الملوك) وأنا أشتهى فى هذه الليلة أن يكون عندك وينام بين نهودك فإنّه فتنة لمن يراه». ثمّ سرعان ما يقذف بهذا البطل إلى مقصورة الأميرة دنيا، ليحقّق له حلمه بامتلاك هذه الأميرة الجميلة: «ثمّ إنّ تاج الملوك عدّ خمسة أبواب ودخل الباب السادس، فوجد السيّدة دنيا واقفة فى انتظاره. فلمّا رأته عرفته، فضمّته إلى صدرها وضمّها إلى صدره (...) ثمّ اختلت هى وتاج الملوك. ولم يزالا فى ضمّ وعناق، والتفت ساق على ساق إلى وقت السحر». ثمّ بعد ذلك ليجعله عاشقاً مليئاً بالهيام والوجد والغرام، لا يطيق الصبر على جسد الأميرة دنيا.

تشير حكايات ألف ليلة وليلة، وفى بعض حالات الحبّ والعشق والجنس إلى أنّ إيديولوجيا الرواة الرجوليّة تؤكّد أنّ المرأة الأميرة أكثر تهتّكاً وفساداً ورغبة فى الزنى من عاشقها الأمير أو الملك، الذى يرغب أن يكون فعل الجنس ذا صبغة شرعيّة أخلاقيّة، وذلك من خلال الزواج على سنّة الله ونبيه. فالراوى فى حكاية «تاج الملوك ودنيا بنت الملك شهرمان»، دفع بطله تاج الملوك إلى حضن الأميرة دنيا، ليلفّ الساق على الساق، وليشتغل فى الهراش والضمّ والعناق لنصف سنة، من دون أن يجعله يفتضّ هذه الأميرة، لا لأنّه يرى أنّ هذا الافتضاض فعل شائن قائم خارج حدود أخلاقيّات الزواج المتعارف عليها، بل ليؤكّد أيديولوجيته الرجوليّة التى ترى أنّ أخلاق المرأة. ومهما كانت رفيعة الشأن. سرعان ما تتهاوى عندما يحضر الرجل الجميل الممتلئ بالقدرات الجنسيّة والجماليّة، فالأمير تاج الملوك يعلن للأميرة دنيا أنّه زاد شوقاً وهياماً وغراماً بها، إلاّ أنّ غرامه هذا لم يبلغ غايته الكليّة، عندها تدعوه الأميرة لأن يتجاوز فعل الضمّ والعناق، وصولاً إلى الغاية الكليّة (فعل الجنس)، لكنّه يرفض أن يصل إلى هذه الغاية، إلاّ بعد أن تأخذ منحى شرعياً لا حرام فيه. يقول الراوى:

«وأمّا ما كان من أمر تاج الملوك والسيّدة دنيا فإنّهما أقاما على حالهما نصف سنة، وهما كلّ يوم يزدادان محبّة فى بعضهما. وزاد على تاج الملوك العشق والهيام والوجد والغرام، حتّى أفصح لها عن الضمير، وقال لها: اعلمى يا حبيبة القلب والفؤاد أنّى كلّما أقمت عندك ازددت هياماً ووجداً وغراماً، لأنّى ما بلغت المرام بالكليّة، فقالت له: وماذا تريد يا نور عينى؟ (...) إن شئت غير الضمّ والعناق والتفاف الساق على الساق، فافعل الذى يرضيك وليس لله فينا شريك، فقال: ليس مرادى هكذا (...) ثمّ قال: وأريد الآن أن أتوجّه إلى أبى ليرسل رسولاً إلى أبيك ويخطبك منه ونستريح».

إنّ العودة إلى الحكاية السابقة: حكاية «الشاب مع الملك والأسماك الملوّنة»، تكشف بعض ملامح الأيديولوجيا الرجوليّة المعادية للمرأة السلطويّة الزانية، وذلك من خلال التباين الحادّ بين أخلاقها وأخلاق زوجها الملك الشاب:

الزوج الملك

الزوجة الملكة

. شاب بأخلاق حسنة لا يصلح لهذه الزانية.

. يثق بها وينام ولا يشعر بما يجرى ولا يعلم أين تذهب، وماذا تصنع.

. يقلق على غيابها وتأخرها عن منزلها، ويخاف عليها من شدّة محبّته لها.

. يحبّها زوجها محبّة عميقة، لكنّها تحتقره وتكرهه.

. سيّدة خبيثة خاطئة زانية.

. تضع له البنج كلّ ليلة فى كأس شرابه.

. تقول له: كرهتك وكرهت صورتك وملّت نفسى من عشرتك.

. تحبّ عبداً أسود بشعاً محبّة عميقة، لكنّ العبد يحتقرها.

ومن ملامح هذه الأيديولوجيا الرجوليّة المعادية لهذه المرأة السلطويّة الزانية، اندفاعها الشديد نحو العبد وتعلّقها به، وتركيز الراوى على مدى احتقار العبد لهذه المرأة العاشقة له، مقابل خضوعها له، واستجدائها لعطفه ومحبّته. والمقارنة الآتية توضّح ذلك:

العبد

المرأة السلطويّة (الملكة)

. رفع ذلك العبد رأسه وقال لها:

ويلك ما سبب قعودك إلى هذه الساعة.

. فقال العبد تكذبين يا عاهرة.

. دخلت على عبد أسود فقبّلت الأرض بين يديه.

. فقالت يا سيّدى وحبيب قلبى أما تعلم أنّى متزوّجة بابن عمّى وأنا أكره النظر فى صورته، وأبغض نفسى فى صحبته.

. قال العبد: إن بقيت إلى هذا الوقت مثل هذا اليوم، لا أصاحبك ولا أضع جسدى على جسدك يا خائنة، تغيبين علىّ من أجل شهوتك يا منتنة يا أخسّ البيض.

. حتى رضى عليها.

. فقال لها: قومى لهذه القوارة تجدى فيها ما تبغين.

. رضى عليها.

. تبكى إليه وتتذلّل بين يديه وتقول له يا حبيبى وثمرة فؤادى، يا حبيبى يا نور العين.

. ما زالت تبكى وتتضرّع.

. قالت: يا سيّدى هل عندك ما تأكل جاريتك؟.

. خلعت ثيابها ولباسها، ورقدت مع العبد على قشّ القصب.

إنّ هذه المرأة السلطويّة قد قلبت الأدوار فى طبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى، فإذا كان من المتعارف عليه، أنّ الذكر هو الذى يطلب الأنثى ويطاردها، فى حين أنّ الأنثى تمتنع عنه، أو تعامله بغنج ودلال حتى يزداد وجداً بها، فإنّ الأيديولوجيا الرجوليّة الرامية إلى احتقار المرأة، واعتبارها شراً على المجتمع الرجولى، قد قلبت الدور، وجعلتها المتهالكة على إشباع شهواتها، مقابل الرجل المزدرى لها. وزيادة فى احتقارها، وتشويه قيمها، والطعن بأخلاقها، فقد جعلتها تكره الملك الجميل والوفىّ والقريب. ابن عمّها. وتسفح ماء وجهها للعبد القبيح البعيد، الذى ينصّب نفسه سيّداً عليها، وتترك مائدة الملك العامرة وفراشه الوثير، لترضى باليسير من الطعام، ولترقد على قشّ القصب، وهذه الملكة تقلب أدوار السيادة والعبودية، وتتنازل عن دورها كملكة، وترضى بدور الجارية، وذلك لصالح العبد الذى يصبح سيّداً لها، موبّخاً وآمراً: «يا عاهرة.. يا خائنة.. قومى لهذه القوارة»، مقابل أن يطفئ سعارها الجنسى.

ويبدو أنّ رواة ألف ليلة وليلة يريدون أن يؤكّدوا لمتلقّى الحكايات، أنّ الغريزة الجنسيّة لدى النساء تشكّل قوّة شيطانيّة وحشيّة، وهذه القوة يجب أن تحبس وتقمع حتّى لا تشكّل خطراً يهدّد المجتمع القائم على مبادئ النظام الأبوى، وحتّى لا تمثّل تحدّياً واضحاً للنظام الذكورى «الذى يقضى بانتقال اسم الرجل وملكيته ومكانته وسلطته من جيل إلى الجيل الذى يليه»، على حدّ تعبير د. سمر العطار ود. جيراهارد فيشر، ولذا يجب قمع المرأة سواء أكانت سلطويّة أم من الطبقات الأخرى، حتى لا تعارض هذا النظام الرجولى الذى لا يريد له الرواة الرجال أن يتنازل عن مكانته وامتيازاته لصالح نساء فاجرات تقودهنّ شهواتهنّ المتأجّجة إلى تقويض بنيانه، وإفساد قيمه.

[٣]

إنّ الرغبة الجنسيّة عند نساء السلطة فى ألف ليلة وليلة تصبح قوّة تدميريّة تفتك بكلّ من يقف ضدّ إشباعها بالتواصل الجنسى، فنساء السلطة لا يرحمن من يحبط رغباتهنّ الجنسيّة، أو من لا يشبعها، حتّى ولو كان من أقرب المقربين إليهنّ. وهذا ما تشير إليه حكاية: «الملك قمر الزمان والملكة بدور»، إذ يتزوّج الملك قمر الزمان امرأتين جميلتين، وهما: الملكة بدور والملكة حياة النفوس، فيرزقه الله بولدين منهما، وهما: الأمير الأمجد من زوجته بدور،

ويبدو أنّ رواة ألف ليلة وليلة يريدون أن يؤكّدوا لمتلقّى الحكايات، أنّ الغريزة الجنسيّة لدى النساء تشكّل قوّة شيطانيّة وحشيّة

لها حتى صالحها ونام عندها تلك الليلة».

ثم يشأ راوى الحكاية أن يجعل المرأة السلطوية والرجل زوجها، غارقين فى الفساد على قدم المساواة، وذلك بأن يرتكبا فعل الزنى، وبناءا مع الشريك الزانى، وبعدد الليالى نفسها التى تم بها هذا الفعل، بل جعل المرأة تفوق الرجل فى هذا الفعل بسبع ليال، لأن هذا الراوى محكوم بأيديولوجيا رجولية تعتقد أن المرأة أكثر فسادا وفسقا من الرجل، وأنها أكثر جرأة، وإقداما على ارتكاب المعاصى من الرجل، لأن شهوتها الجنسية تفوق شهوة الرجال، وفق هذه الأيديولوجيا الرجولية، ولأن هذه الشهوة عند النساء متأججة، ولا تستطيع ضبطها، فإنها تلجأ إلى إشباعها بطريقة شاذة مع الحيوانات الأليفة كالدب والقرد، كما فى حكايتى: «وردان الجزار» و«داء غلبة الشهوة عند النساء»، أو بطريقة سحاقية كما فى حكاية «عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»، إذ تبدو المرأة العجوز السلطوية، شواهى ذات الدواهى ولعة بسحاق جوارى ولدها الملك، فقد كانت تقيم «عند ولدها حردوب ملك الروم لأجل الجوارى الأبكار، لأنها كانت تحب السحاق، وإن تأخر عنها تكون فى انمحاق، وكل جارية أعجبتها تعلمها الحكمة، وتسحق عليها الزعفران فيغشى عليها من فرط اللذة مدة من الزمان، فمن طاوعتها أحسنت إليها ورغبت ولدها فيها، ومن لا تطاوعها تتحايل على هلاكها وكانت ترغب من تساحقها بالجواهر والتعليم».

ووفق الأيديولوجيا الرجولية المعادية للمرأة، تبدو المرأة، سواء أكانت سلطوية أم غير سلطوية، جريئة ومقدامة، وقادرة على ارتكاب المعاصى والفجور أكثر من الرجال، ومن هنا فإنه لا عاصم يعصم هذه المرأة من ارتكاب الموبقات، إلا إيمانها وخوفها من الله سبحانه وتعالى، وإن انتفى هذا الإيمان، فإنها ستفعل ما تريده على الرغم من كل سلطات الذكور، ومن كل الحواجز المحصنة التى يحاصرونها بها، ويسجنونها داخلها، وهذا ما تشير إليه الأيديولوجيا الرجولية فى الحكاية الأولى من حكايات ألف ليلة وليلة، حكاية «الملك شهريار وأخيه شاه زمان».

ولقد عمد معظم رواة ألف ليلة وليلة، من خلال تصويرهم لمواقف نساء الليالى، وسلوكهن إلى تأكيد هذه الرؤية الأيديولوجية: «إن المرأة إذا أرادت أمرا لم يغلبها شىء». ويبدو أن هذه الرؤية مستمدة من الخلفيات المرجعية التاريخية التى اطلع عليها الرجال، ومن ثم آمنوا بها، وكرسوها فى مدنهم، وفى علاقاتهم الإنسانية مع نسائهم وأخواتهم وبناتهم ونساء عصرهم، والتى تؤكد دونية المرأة، وعدم الثقة بها، وتهالكها على ارتكاب المعاصى.

إن حياة الفسق التى ينغمس فيها مجتمع السلطة تجعل أفراد هذا المجتمع عاجزين عن ممارسة السيطرة الضرورية على ذواتهم التى تنجرف فى ملاحقة العلاقات الجنسية غير الشرعية وطلبها

[٢]

إن حياة الفسق التى ينغمس فيها مجتمع السلطة تجعل أفراد هذا المجتمع عاجزين عن ممارسة السيطرة الضرورية على ذواتهم التى تنجرف فى ملاحقة العلاقات الجنسية غير الشرعية وطلبها، وإذ يبحث المرء فى الزنى عن العلاقات الجنسية غير الزوجية التى هى أكثر ما تتنافى مع القانون، فإنه يكون قد دخل ضمن علاقات جنسية تُعد بحد ذاتها مخزية وناشئة عن الفسق. ومن هنا، فإن زنى المرأة السلطوية بالحشاش فى حكاية «الحشاش مع حريم أحد الأكابر»، كان نتيجة علاقات الفسق والفساد التى سادت فى قصور ألف ليلة وليلة، والتى انغمس فيها كبار القوم من جهة، وهو فى بنيته العميقة يشير إلى فساد متأصل فى طوية هذه المرأة وسلوكها وقيمها التى تربت عليها فى مجتمع سلطوى ترى مستبد محاط بالأبهة والخدم، لا يأبه بالمواضعات الأخلاقية، ولا يهمه إن غرق أعيانه فى حياة قوامها الانحلال والفساد، أو بث الرعب فى نفوس مواطنيهم، وإجبارهم على تحقيق نزواتهم من جهة ثانية. ولو كان فعل الزنى مجرد انتقام من الزوج السلطوى فحسب، لاكتفت المرأة السلطوية بالمبيت مع الحشاش مرة واحدة بدلاً من ثمانى ليال، ولا سيما أن الزوج مارس فعل الزنى مع جارية المطبخ مرة واحدة. أما المرأة فقد استمرأت هذا الفعل مع الحشاش، لأنه لم يعد أقذر رجل فى المدينة بعد أن أدخلته حمام قصرها، وأمرت جواريها بتنظيفه وتدليكه، وتضميخه بماء الورد، وإلباسه أجمل الملابس.

وليست هذه المرأة، زوجة أحد الأكابر فى حكاية «الحشاش مع حريم أحد الأكابر»، هى المرأة السلطوية الوحيدة فى حكايات ألف ليلة وليلة، التى تمارس فعل الزنى مع الرجال القذرين، والأدنى منها طبقة اجتماعية، بل هناك نساء سلطويات، زوجات وبنات ملوك، أسوأ منها بكثير، ومنهن زوجة أحد الملوك الكبار التى تخون زوجها الملك يومياً على الرغم من حبه ووفائه الشديدين لها، وسلوكه العفيف مع نساء مجتمعه وجوارى قصره، كما تشير حكاية «الشاب مع الملك والأسماك الملونة»، الداخلة ضمن حكاية «الصياد والعفريت». فقد تزوجت هذه المرأة، لا يذكر الراوى اسماً لها، ابن عمها صاحب الجزائر السود، وكانت تحبه محبة عظيمة، بحيث إذا غاب عنها لا تأكل ولا تشرب حتى تراه، لكنها صارت فيما بعد تكرهه وتقع فى حب جديد، مثلها مثل معظم نساء ألف ليلة وليلة. وعندما يأتى كل مساء تضع بنجاً فى قدح شرابه، وترتدى أجمل ملابسها، وتخرج للقاء عشيقها. يقول الراوى: «وإذا بها تقول: ثم ليلتك (....) والله كرهتك وكرهت صورتك وملت نفسى من عشرتك، ثم قامت ولبست أفخر ثيابها وتبخرت وتقلدت سيفاً وفتحت باب القصر».

وذات ليلة يتظاهر الملك بالنوم أمام جاريتين من جواريه اللتين تدلكانه، ويكتشف من حديث الجاريتين خيانة زوجته له: «فسمعت التى عند رأسى تقول للتى عند رجلى يا مسعودة إن سيدنا مسكين شبابه ويا خسارته مع سيدتنا الخبيثة الخاطئة. قالت الأخرى: (....) ولكن مثل سيدنا وأخلاقه لا يصلح لهذه الزانية التى كل ليلة تبيت فى غير فراشه. فقالت التى عند رأسى: إن سيدنا مغفل حيث لم يسأل عنها. فقالت الأخرى: ويلك وهل عند سيدنا علم بحالها أو هى تفعل ذلك باختياره؟ بل هى تعمل له عملاً فى قدح الشراب الذى يشربه كل ليلة قبل المنام، فتضع فيه البنج فينام ولا يشعر بما يجرى ولا يعلم أين تذهب ولا ماذا تصنع».

وعندما يكتشف الملك سر نومه الثقيل، يمتنع فى إحدى الليالى عن شراب كأسه المخدر، ويراوغ زوجته، ثم يدلق كأسه أرضاً، ويتظاهر بالنوم، فتقوم الزوجة كعادتها بارتداء أفخر ملابسها والخروج قاصدة عشيقها العبد الأسود، فينهض مسرعاً ويتبعها شاقاً أسواق المدينة، وعندما تصل زوجته إلى عشيقها تكتشف الحقيقة المؤلمة أمامه، فيغيب عن الوجود، ويصير الضياء فى وجهه ظلاماً بمفردات رواة ألف ليلة وليلة. يقول الراوى:

«وإذا بها قد دخلت على عبد أسود فقبلت الأرض بين يديه، فرفع ذلك العبد رأسه وقال لها: ويلك ما سبب قعودك إلى هذه الساعة؟ كان عندنا السود وشربوا الشراب وسار كل واحد بعشيقته وأنا ما رضيت أن أشرب! فقالت: يا سيدى وحبيب قلبى أما تعلم أنى متزوجة بابن عمى وأنا أكره النظر فى صورته وأبغض نفسى فى صحبته ولولا أنى أخشى خاطرك لكنت قد جعلت المدينة خراباً يصيح فيها البوم والغراب. فقال العبد تكذبين يا عاهرة وأنا أحلف وحق قتوة السود (...) إن بقيت تقعدى إلى هذا الوقت مثل هذا اليوم، لا أصاحبك ولا أضع جسدى على جسدك يا خائنة، تغيبين علىّ من أجل شهوتك يا منتنة يا أخس البيض».

قال الشاب (زوجها الملك): «فلما سمعت كلامها وأنا أنظر بعينى ما جرى بينهما صارت الدنيا فى وجهى ظلاماً وصارت بنت عمى واقفة تبكى إليه وتتذلل بين يديه وتقول يا حبيبى وثمرة فؤادى، يا حبيبى يا نور العين! ومازالت تبكى وتتضرع له حتى رضى عليها فضرحت وقامت وخلعت ثيابها ولباسها، وقالت يا سيدى هل عندك ما تأكله جاريتك، فقال لها: قومى لهذه القوارة تجدى فيها ما تبغين، فقامت وأكلت وشربت وغسلت يديها وجاءت فرقدت مع العبد على فش القصب، وتعرت ودخلت معه تحت الهدمة، فلما نظرت إلى هذه الفعال التى فعلتها بنت عمى غبت عن الوجود».

أثرت أن أطيل الاقتباس حتى تتضح الأيديولوجيا الرجولية المعادية والمحتقرة لهذه النوعية من النساء السلطويات الفاسدات، وإلى أى مدى يمكن أن تكون نساء السلطة فى الليالى، ووفق هذه الأيديولوجيا.

والأمير الأسعد من زوجته حياة النفوس. ويكبر الولدان حتى يصيرا فى غاية الكمال ونهاية الحسن والجمال، ويفتتن بهما النساء والرجال، بمفردات راوي الحكاية، وتُفتن بهما زوجتا الملك. إذ «إنّ محبة الأسعد الذى هو ابن حياة النفوس وقعت فى قلب الملكة بدور زوجة أبيه، وإنّ محبة الأمجد الذى هو ابن الملكة بدور وقعت فى قلب الملكة حياة النفوس زوجة أبيه، فصارت كلّ واحدة من الضرّتين تلاعب ابن ضرّتها وتقبّله وتضمّه إلى صدرها (...) وتمكّن العشق من قلب المرأتين وافتتنتا بالولدين فصارت كلّ واحدة منهما إذا دخل عليها ابن ضرّتها تضمّه إلى صدرها وتودّ أنّه لا يفارقها».

ولا تستطيع هاتان المرأتان الصبر على هذا العشق الذى ملأ عليهما حياتهما، فتمتنعان عن الشراب والطعام وتهجران لذيذ المنام، وتكتب كلّ منهما رسالة عشق إلى ابن ضرّتها، تبدى له ولهها، وتتضرّع إليه أن يرحمها مما تقاسيه من اللهف والشغف والبكاء والأنين والكآبة والاحتراق، طالبة الوصال الجنسى. ثمّ ترسلانهما إلى عشيقيهما الأميرين الأمجد والأسعد مع خادم وخادمة لهما. يقول الراوى: «فتناول الملك الأمجد المنديل من الخادم وفتحه، فرأى الورقة ففتحها وقرأها. فلما فهم معناها علم أنّ امرأة أبيه فى عينها الخيانة. وقد خانت أباه قمر الزمان فى نفسها، فغضب غضباً شديداً وذمّ النساء على فعلهنّ (...) ثم إنّه جرّد سيفه وقال للخادم ويلك يا عبد السوء أتحمل المراسلة المشتملة على الخيانة من زوجة سيدك؟ والله إنّه لا خير فيك يا أسود اللون والصحيفة، يا قبيح المنظر والطبيعة السخيفة. ثمّ ضرب بالسيف فى عنقه فعزل رأسه عن جثّته».

ويفعل الأمير الأسعد مثلما فعل أخوه الأمير الأمجد من قبله، ويرمى عنق العجوز التى نقلت رسالة العشق من زوجة أبيه الملكة بدور. عندها تُحبَط المرأتان فى عشقهما، ويصيبهما المرض والضعف الشديد، وينقلب عشقهما إلى حقد وكراهية شديدة لهذين الأميرين، وتقرران الانتقام منهما، وذلك بتدبير مكيدة تطيح بهما. وعندما يعود الملك قمر الزمان (أبوهما) بجيشه من الصيد ويشاهد زوجتيه مريضتين، يسألهما عن حالهما، عندها تقومان بتنفيذ المكيدة لهما. يقول الراوى: «فلمّا رآهما الملك على تلك الحالة قال لهما: مالكما؟ فقامتا إليه وقبّلتا يديه وعكستا عليه المسألة وقالتا له: اعلم أيها الملك أنّ ولدك اللذين قد تربّيا فى نعمتك قد خانا فى (وجنتيك، وأركبك العار. فلمّا سمع قمر الزمان من نسائه هذا الكلام صار الضياء فى وجهه ظلاماً واغتاظ غيظاً شديداً حتّى طار عقله من شدّة الغيظ».

وليست نساء السلطة فى ألف ليلة وليلة هنّ المستبدّات والزوانى الوحيدات، بل يتساوى فى ذلك معظم نساء ألف ليلة وليلة

إنّ الملكتين بدور وحياة النفوس مستعدّتان لأن تقودا ولديهما الوحيدين إلى حافة الموت، وتعيشان طوال حياتهما محرومتين من عاطفة الأمومة الكريمة، لأنّ هذين الولدين أذلاّهما فى كبح جموح شهوتهما الجنسية، وهما غير مستعدّتين أن تعيشا ذليلتين فى ظلّهما كحاكمين مع أبيهما، وبعد موته. ويعلّل الراوى سبب اندفاعهما لقتل ولديهما، ووفق أيديولوجيّته الخاصة، لأنهما خشيتا أن تصيرا تحت ذلّ هذين الأميرين، بعد أن فضحتا نفسيهما معهما، ويمكن القول: إنّ عدم إرواء الدافع الجنسى عند الملكتين هو الذى أشعل فيهما نزعتهما العدوانية، وحقدهما على الأميرين، ورغبتهما العميقة بقتلهما، لأنّ ثمّة عنصراً شيطانيّاً من العداء يظهر فى حالة الكبت، وهذا العنصر من شأنه أن يجعل من النزعة الجنسية شيئاً مميتاً هدّاماً إذا لم تجد طريقها إلى الإشباع، وفق رؤية جوزيف جاسترو.

ولا ينسى راوى الحكاية أن يثبت أيديولوجيّته المعادية للملكتين الشهوانيتين؛ فعندما يغادر زوجهما الملك قمر الزمان، سرعان ما تبدأ علائم الخيانة لتظهر فى سلوكهما، عندها يدفع بطله الرجل الأمير الأمجد، لأنّ يذمّ النساء، ويؤكّد أنهنّ خائنات وناقصات فى دينهنّ وعقولهنّ، ثمّ يسحب هذه الأيديولوجيا على العجوز الخادمة، لأنّها من العجائز الماكرات، ولا ينسى أن يثبت أيديولوجيّته التى تشيد بأخلاق أبطاله الذكور. فالأميران الأمجد والأسعد يُظهران وفاءً لوالدتيهما ولوالدهما قمر الزمان، ويقرّران أن يحافظا على سرّهما خوفاً على حياتهما المهدّدة، فيما إذا ظهر سرّهما للملك قمر الزمان: «ثمّ تواصيا بكتمان هذا الأمر لئلاّ يسمع به أبوهما الملك قمر الزمان فيقتل المرأتين». فى حين أنّ هاتين المرأتين تبديان مكراً ولؤماً وتصميماً على تحريض أبيهما لقتلهما، اعتقاداً منهما بأنّهما ستبقيان ذليلتين أمام الأميرين ولديهما، طالما هما مقيمان على رأس السلطة.

ولم ينس الراوى فى هذه الحكاية: حكاية «الملك قمر الزمان والملكة بدور»، أن يعمّم أيديولوجيّته الرجوليّة المعادية للمرأة. تأسيساً على حالة خاصّة لملكتين خائنتين. التى اكتسبها من أخلاقيّات ومفاهيم وأدبيّات عصره، إذ جعل بطليه الأمجد والأسعد يقولان عن النساء بعامّة، بعد أن دبّرت لهما زوجتا أبيهما تلك المكيدة:

أعوذ بالله من كيد الشياطين
بين البريّة فى الدنيا وفى الدين.
إنّ النساء شياطين خُلقنَ لنا
فهنّ أصل البليّات التى ظهرت

وليست نساء السلطة فى ألف ليلة وليلة هنّ المستبدّات والزوانى الوحيدات، بل يتساوى فى ذلك معظم نساء ألف ليلة وليلة، لكنّ الرواة اهتموا بالتركيز، ويبدو أنّ ظاهرة الثراء الفاحش التى انغمست بها هاتان الطبقتان، قد أسهمت فى فساد نسائهما وفجورهنّ، وجرأتهنّ على ارتكاب المعاصى، فمن المعروف أن الأثرياء فى المجتمعات المدنيّة ونظراً «لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوّثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشرّ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك. حتّى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة فى أحوالهم؛ فنجد الكثير منهم يُقذعون فى أقوال الفحشاء فى مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم، لا يصدهم عنه وازع الحشمة، لما أخذتهم به عوائد السوء فى التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً». كما يقول ابن خلدون فى مقدمته.أ

إنّ الملكة بدور بنت الملك الغيور كانت تحبّ عشيقها قمر الزمان، قبل زواجها به، محبّة شديدة، ثمّ ما لبثت أن فكّرت بخيانته عندما صار زوجاً لها، لأنّها وجدت أنّ ابن ضرّتها حياة النفوس. الأمير الأسعد. أكثر شباباً وبهاءً منه. ومن شدّة محبّتها للعشيق قمر الزمان. وعندما يُتاح لها ذات مرّة، وقبل أن تتزوّجه، أن ترقد بجواره، وتتأمّل مفاتنه وجسده المتفجّر بالقدرات الجنسيّة. فإنّ خلايا دمها تهتاج شهوة وعشقاً له. يقول الراوى: «ثمّ فتحت جيب قميصه ومالت عليه وقبّلت رقبته وراته بغير سروال فمدّت يدها من تحت ذيل قميصه وجسّت سيقانه، فزلقت يدها من نعومة جسمه، فانصدع قلبها وارتجف فؤادها وقبّلته فى ثغره وقبّلت كفّيه، ولم تترك فيه موضعاً إلاّ قبّلته. وبعد ذلك أخذته فى حضنها وعانقته، ووضعت إحدى يديها تحت رقبته والأخرى تحت إبطه، ونامت بجانبه». وعندما استيقظت وما وجدته بجوارها، ظنّت أنّ قهرمانتها ووالدها الملك قد تآمرا عليها، وحرماها من هذا العشيق، النموذج الطاغى جمالياً، الذى ظلّت تبحث عنه طيلة حياتها رافضة جميع عظماء مملكة أبيها والممالك المجاورة حتّى لا تتنازل عن سلطتها لأىّ رجل كان. فها هو هذا النموذج الجمالى المثير والمُشتهى يحضر مُريحاً جميع الرجال الآخرين، محقّقاً للأميرة جميع آمالها فى إشباع اندفاعها الجنسى المحموم والمكبوت، وهاهى تستيقظ ولا تجده، عند ذلك تيقّنت أنّها حُرمت منه. فما كان منها إلاّ أن أصيبت بنوبة هستيريا أفقدتها عقلها. يقول الراوى: «وطار عقلها على رأسها، وصارت تلتفت يميناً وشمالاً، ثمّ شقّت ثوبها إلى ذيلها، فلمّا رأى أبوها تلك الفعال أمر الجوارى والخدم أن يمسكوها، فقبضوا عليها وقيّدوها وجعلوا فى رقبتها سلسلة من حديد وربطوها فى الشباك الذى فى القصر».

إنّ الاندفاع الجنسى غير المُشبَع، يسبب لصاحبه، سواء أكان امرأة أم رجلاً، حالة تشنّج دائم، تعترضها نوبات شديدة تقترب كثيراً من الصرع، على حدّ تعبير ميشيل فوكو، وتتزامن هذه النوبات بتوتر مفرط للأعضاء الجنسيّة، أو ما يسمّى بالنعاظ، إذ تميل

ونظراً لأنّ نساء ألف ليلة وليلة فاتنات ومثيرات جنسياً، فإنّ هؤلاء الحكّام كانوا يتطامنون أمامهن، ولذا يمكن لأيّة امرأة بجمال صوتها، ومفاتن جسدها، أن تكون ذات سطوة في قصرها وعلى جواريها وعلى زوجها

[٤]

إنّ للنساء الجميلات في ألف ليلة وليلة، سواء أكنّ من طبقة السلطة أم من بقيّة الطبقات الاجتماعيّة الأخرى، سطوة شديدة على الرجال، باختلاف طبقاتهم ومراكزهم السياسيّة والاجتماعيّة. ومن الغريب أنّ الرجال الملوك والأثرياء في ألف ليلة وليلة، ومهما كان عدد زوجاتهم وجواريهم كثيراً، يطمحون دائماً إلى امتلاك المزيد من هاته النسوة الجميلات امتلاكاً جنسياً، ويبذلون كلّ ما بوسعهم لامتلاكهنّ، ويفتعلون الحروب، ويتطاحنون، ويبددون أنفسهم لأجل هاته النسوة. فعلى سبيل المثال: على الرغم من كثرة نساء النبيّ سليمان بن داود، فإنّه كان يطمح إلى امتلاك أيّة امرأة جميلة ومغايرة لغيرها من النساء، عندما يسمع بخبرها من أعوانه عفاريت الجان، فعندما يصف له العفريت داهش بن الأعمش ابنة أحد الملوك. وهو من أولاد إبليس. بمحاسنها ومفاتنها، حيث «كانت أحسن أهل زمانها ذات حسن وجمال وبهاء وكمال»، فإنّه سرعان ما يبدي رغبته في زواجها، ويرسل إلى أبيها الملك قائلاً: «زوّجني ابنتك واكسر صنمك (...) وإن أنت أبيت أتيت بجنود لا طاقة لك بها، فاستعدّ للسؤال جواباً والبس للموت جلباباً، فسوف أسير لك بجنود تملأ الفضاء». لكنّ والد الفتاة الجميلة يرفض طلبه، عندئذ يستنفر النبيّ مملكته وأعوانه من الإنس والجان والشياطين، ويأمر وزيره الدمرياط ملك الجان، ووزيره آصف بن برخيا بأن يزحفا بجنودهما إلى هذا الملك، ويهدما مدينته فوق رأسه. ويذهبون ويهدمون المدينة، ويتزوّج النبيّ سليمان هذه المرأة الجميلة. لا يذكر الراوي اسماً لها. اغتصاباً وقهراً.

إذا كان الراوي يسوّغ للنبيّ سليمان بن داود هدمه للمدينة، ووفق أيديولوجيا دينيّة تهدف إلى تحقيق رغبته في تأديب هذا الملك. ابن إبليس. وإجباره على الإيمان برسالته النبويّة، فإنّ متلقّي الحكاية سيقتنع أنّ الهدف الرئيس من هذا الهدم هو المرأة الجميلة الموجودة في هذه المدينة. ويذكر الراوي أنّه أرسل الرسالة التالية إلى والد الفتاة الجميلة: «أنا قد أتيت فاردد عن نفسك ما نزل، وإلاّ فادخل تحت طاعتي وأقرّ برسالتي واكسر صنمك واعبد الواحد وزوّجني ابنتك بالحلال، وقل أنت ومن معك أشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ سليمان نبيّ الله، فإنّ قلت كان لك الأمان والسلامة، وإن أبيت فلا يمنعك تحصّنك منّي في هذه الجزيرة، فإنّ الله تبارك وتعالى أمر الريح بطاعتي، فأمرها أن تحملني إليك بالبساط وأجعلك عبرة لغيرك».

ويمكن أن يتساءل متلقّي الحكاية: لماذا لم يُرجع النبيّ سليمان بن داود الملكَ الضالّ ابن إبليس إلى طريق الإيمان والحقّ، إلاّ بعد أن سمع أنّ له ابنة جميلة؟ وهل غزوته مدينة الملك كانت تهدف إلى عودة هذا الملك الضالّ إلى الإيمان أم هي غزوة هدفها اختطاف المرأة الجميلة والزواج بها رغماً عنها، مع العلم أنّ هذه المرأة رافضة له عن قناعة تامّة، بناء على قناعة أبيها الذي يكرهه. وقد يتساءل هذا المتلقّي: هل يجوز للنبيّ سليمان أن يتزوّج هذه المرأة قهراً، لأنّها اختارت طريق الشرك ورفضت طلبه؟ هذا إذا كان من المتعارف عليه أنّ الزواج عند كلّ الأمم والأقوام، وعبر تاريخ الحضارات المتعاقبة والمتزامنة، لا يكون إلاّ برضى الطرفين. وكيف يجوز له وهو العارف بأصول الزواج وأعرافه الاجتماعيّة والإنسانيّة، أن يجبر امرأة جميلة لا تحبّه على الرضوخ له والزواج به كراهيةً وغصباً، وبخاصّة إذا كانت قصوره مليئة بالجواري والنساء الجميلات، ويستطيع الزواج بمن يشاء من نساء مملكته الكثيرات المؤمنات برسالته؟ وكيف يمكن فهم سرّ سطوته وإصراره على اختطاف امرأة تبغضه، ثم تدمير مدينتها، وقتل أبيها. وسبي قومها؟.

إنّ المتلقّي يجد نفسه أمام احتمالين: إمّا أن يكون النصّ الحكائي نصّاً تخييلياً غرائبياً نسجته مخيّلة راوٍ مبدع أثرى يقدّم نصّاً قادراً على إدهاش المتلقّي، وشدّه إلى الاستمتاع بهذا النصّ، والتحليق به إلى فضاءاته السحرية البعيدة. وهنا تبدو إجابته على تساؤلاته السابقة مريحة مقنعة، فمادام فضاء الحكاية هو فضاء التخيّل الغرائبيّ الإبداعي، فليس هناك ما يمنع الراوي من أن يقول ما يشاء، ويؤسطر ما يشاء حول حياة النبيّ سليمان بن داود، وطموحه لامتلاك النساء. وإمّا أن يكون النصّ الحكائي قريباً من الواقع، أو مؤسّساً على مجموعة من المصادر التاريخيّة التي تحدّثت عنه. وهنا سيعود هذا المتلقّي ويتساءل ثانية، بالإضافة إلى أسئلته السابقة: ما السرّ الخفيّ الكامن وراء اندفاعه للزواج بالمرأة غصباً؟ وهل أخلاقه أخلاق الأنبياء أم أخلاق الملوك؟. وقد يظلّ هذا المتلقّي عاجزاً عن إيجاد إجابات دقيقة عن أسئلته الكثيرة التي توقعه في مزيدٍ من الحيرة والشكّ والإبهام.

ويبدو أنّ النبيّ سليمان بن داود كان ولعاً بامتلاك النساء وحشرهنّ في قصوره، فقد كان له ألف بيت فيها ثلاثمائة صريحة، وسبعمائة سرّيّة، كما يروي الطبري.

وليس غريباً على راوي الحكاية أن يجعله يهدم مدينة، ويقتل ملكها، ويتزوّج ابنته غصباً، هذا إذا عرفنا أنّ معظم ملوك ألف ليلة وليلة وأمرائها وخلفائها، من الملك شهريار مروراً بعمر النعمان حتّى هارون الرشيد وغيرهم كثر، يتزوّجون المرأة التي يريدونها شاءت أم أبت.

ونظراً لأنّ نساء ألف ليلة وليلة فاتنات ومثيرات جنسياً، فإنّ هؤلاء الحكّام كانوا يتطامنون أمام هاته النسوة، ولذا يمكن لأيّة امرأة بجمال صوتها، ومفاتن جسدها، أن تكون ذات سطوة في قصرها وعلى جواريها وعلى زوجها، كدنيا البرمكيّة، وزوجة أحد الرجال السلطويين في حكاية: «الحشّاش مع حريم أحد الأكابر»، وجواري السيدة زبيدة. فالرواة الذين عاصروا طفاة أزمنتهم لا يستطيعون أن يتركوا أبطالهم من الملوك والأمراء في حال سعار جنسي، على الرغم من جبروت النساء المعشوقات وسطوتهنّ؛ فما على النساء في نهاية

المطاف إلاّ الاستسلام لرغبات رجال السلطة، وإطفاء سعارهم الجنسي. وقد كان كثير من النساء يجد لذّة في هذا الاستسلام، لأنه يحقّق لهنّ إشباعاً جنسياً، وطموحاً للوصول إلى أعلى المراتب السياسية، وهذا الاستسلام في بنيته العميقة ليس هزيمة، بل إنه يقود إلى المجد والسلطة، فبعد أن تستسلم المرأة لرغبات الرجل السلطوي تمارس بدورها سلطة جنسية عليه، وتمارس على جواريها وعبيدها سلطة فعلية.

[٥]

على الرغم من سلطة النساء في ألف ليلة وليلة، وبطشهنّ واستبدادهن، فإنّ الرواة، بعد أن يبرزوا ملامح استبدادهنّ، يبنوا أيديولوجيته م المعادية لهنّ. يحظون من مكانتهن، فهنّ دائماً في وضعية تقبيل اليد لرجال السلطة، على الرغم من مكانتهنّ الاجتماعية العليا. فالسيدة شمسة بنت الملك شهلان عشيقة الأمير جانشاه في حكاية «حاسب كريم الدين وملكة الحيّات»، هي وجميع أخواتها الأميرات يقبّلن يد الأمير العاشق جانشاه عندما يصل إلى قصر والدهن الملك. في حين أنّ هؤلاء الرواة يعدّون الرجل السلطوي سيداً دائماً. في معظم حكاياتهم. ويعدّون المرأة بمنزلة الجارية الدونية. فمعظم النساء، مهما علا شأنهن، يبقين جواري لأزواجهنّ وعشاقهن وآبائهن، وحتّى الأميرات بنات الملوك يصبحن جواري عندما يتزوّجن أو يعشقن، لأنّ الرواة يجبرونهنّ على التنازل عن مكانتهنّ السلطوية كأميرات. فابنة ملك صنعاء الأرستقراطية البهيّة التي تحاكي البدر الزاهر تصبح جارية عند الراوي، عندما يعشقها ابن أحد ملوك ألف ليلة وليلة، فهذه الأميرة «الجارية فرحت عندما سمعت من ابن الملك هذا الكلام».

وتشير حكاية «حسن الصائغ البصري» إلى أنّ الأميرة منار السنا زوجة حسن الصائغ البصري من أهم أميرات ألف ليلة وليلة، وأنّ والدها من أثرى ملوك زمانه، وأشدهم سطوة، ويملك أقاليم وبلاداً شاسعة، ومع ذلك فإنّ الراوي لا يراها إلاّ جارية أمام زوجها، على الرغم من أنّ زوجها من طبقة اجتماعية دونية. طبقة الصاغة «وحتّى يحطّ الراوي من منزلة الأميرة منار السنا، هذه المرأة التي كانت أميرة ثمّ صارت جارية بعد زواجها من حسن البصري، فإنه يتجاهل اسمها منذ بداية خيوط سرد الحكاية، ولا يفصح عن هذا الاسم إلاّ بعد أن تكون الحكاية قد شارفت من نهايتها.

وهنا يمكن القول: إنّ البنية الثقافية لرواة الليالي، بمفاهيمها ومعتقداتها، هي انعكاس للبنية الثقافية العامّة والتجميعية لحضارة عصرهم والعصور التي سبقتهم، هذه البنية التي تعتقد جازمةً أنّ النساء لسن إلاّ جواري، على الرغم من علوّ مكانتهنّ الاجتماعية والسياسية، ولسن في نهاية المطاف إلاّ ملكاً للرجال، «وما خُلقت النساء إلاّ للرجال». وأنّه مطلوب منهنّ أن يطعن الرجال طاعة مطلقة، وأن لا يغادرن منازلهنّ إلاّ بأمر أزواجهن، لأنّ الخروج على طاعة هؤلاء الأزواج يعني ارتكاباً للآثام، ودخول أبواب المعاصي والهلاك. وهذه الرؤى الأيديولوجية المبثوثة في حكايات ألف ليلة وليلة تشير إلى بنية الرواة المعرفية التي يكمن وراءها عقل استبدادي معاد لاستبداد النساء وجبروتهنّ، ويرى أنّ أولى مهمّات المرأة في الحياة أن تكون وعاءً للإنجاب واللذّة وخادمة للرجل، ترضخ لأوامره، ولا تفكّر أبداً بالانفلات من حظيرة سطوته، وإلاّ فإنّ المصائب الهالكة ستحيق بها. وهاهو أحد الرواة يكشف عن رؤيته الاستبدادية، بحمولاتها المعرفيّة التي تدعو المرأة إلى حمل لواء طاعة الرجل، ومهما كانت رفيعة القدر، ويجعل بطلته منار السنا تعزّز ذلك. وهاهي تعتذر لزوجها حسن البصري عن خروجها من منزله ببغداد من دون أمره، مؤكّدة له أنّ كل ما حلّ بها من مصائب كان نتيجة لخروجها على طاعته: «هيهات يا روحي هيهات أن يخلّصني أحد، ممّا أنا فيه إلاّ الله تعالى، ففز بنفسك وارحل ولا ترم روحك في الهلاك فما حلّ بي هذا إلاّ لكوني عصيتك وخالفت أمرك، وخرجت من غير إذنك، فبالله عليك يا حسن لا تؤاخذني بذنبي واعلم أنّ المرأة ما تعرف قيمة الرجل حتّى تفارقه وأنا أذنبت وأخطأت، ولكن أستغفر الله العظيم ممّا وقع منّي وإن جمع الله شملنا لا أعصى لك أمراً بعد ذلك أبداً».

إنّ رؤية الرواة الأيديولوجية المأخوذة بوهم الرجولة والسيادة والتفوّق، أسهمت إلى حدّ بعيد في تشكيل نساء ألف ليلة وليلة المستبدّات اللواتي يشكّلن خطراً على مجتمع الرجال ومجتمع النساء في آن. ومن هنا فإنه وجب على الرجال، وفق أيديولوجيا هؤلاء الرواة، في المدن الإسلامية وغير الإسلامية، حتّى يمنعوا مدّ شرور النساء وبطشهنّ، وحتّى يعمّ الأمان والطمأنينة، أن يكبحوا جموح النساء، وأن يقلّصوا أدوارهنّ في الحياة السياسية والاجتماعية، ووجب على النساء أن تعمل على دوام مرضاتهم وسعادتهم، ولذائذهم في المأكل والمشرب والجسد، وخدمة أولادهم، وتربيتهم التربية التي يرونها مناسبة.

كتاب الزاوية

كلمات

قاسم أمين

❖ الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأى، ونشر كل مذهب، وترويج كل فكر.

❖ لا يغرنك المرتقى السهل إذا كان المنحدر وعرًا.

❖ إن الذى مدحك بما ليس فيك إنما هو مخاطب غيرك.

❖ رب كلمة يتجرعها حليم مخافة ما هو شر منها.

❖ إذا استشارك عدوك فأخلص له النصيحة، لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل فى مودتك.

❖ فى مصر: كل من يعرف القراءة والكتابة يسمى فاضلاً، فإذا درس شيئًا من العلم صار عالمًا مفضالاً. فإذا امتاز ببعض الحذق أو إظهاره عد من النوابغ.

❖ ليس الإيمان مسألة عقلية أو علمية، فإنا نرى بين العلماء من يصدق كما نرى بين الجهلاء من يكذب، وإنما الإيمان مسألة شعور صرف، شعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجًا إليه إلى حد أنه يستحيل عليه أن يعيش بدونه.

❖ تعصب أهل الدين، وغرور أهل العلم، هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم. وليس بصحيح أنه يوجد بينهما خلاف حقيقى، لا فى الحال ولا فى الاستقبال.

❖ لا شىء يشبه العشق فى عنفوان نشأته، إذا هجم هذا المستبد القاهر ارتعدت له الفرائص وحصر اللسان واختبل العقل وخلا الطريق أمامه فوصل إلى القلب بوثبة واحدة أو بوثبات متعددة، ومتى احتله تمدد فيه وانتشر وملأه برمته، فلا يقبل منافسًا أو منازعًا أو شريكًا أو ضيفًا بجانبه.

د. محمد عبد الرحمن يونس - الصين المعاصرة ص 44

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد السادس والأربعون . السنة الرابعة . نوفمبر ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 46 - November 2002

ثورة يوليو : خمسون عاما

محمد حسنين هيكل

الساعة تدق منتصف الليل!

مكتبة الإسكندرية لم تكن يونانية.. وعمرو بن العاص لم يحرقها!

أحمد عثمان/ نسيم مجلى

شتيمة العرب أو المسلمين .. تضمن التهليل لك فى الغرب

جلال أمين

الكتب فى عالم بلا قراء!

يوستين جوردار

«نون» : الصعود إلى الغابة السوداء

سلامة أحمد سلامة

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
تصدر عن

وجهات نظر

من الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد السادس والأربعون
نوفمبر ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حسني القاوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

حقوق نشر جميع المواد والرسوم محفوظة

محتويات العدد:

- كلمة.. «يوستين جوردر القصة والقاص» ٣
- محمد حسنين هيكل ٤
  «الساعة تدق منتصف الليل!».
- ريتشارد راسل ١٨
  «الحرب ومعضلة العراق.. كما يراها العسكريون الأمريكيون».
- أنطوني كوردسمان ٢٢
  «التقييم الأمريكي لقدرات العراق العسكرية».
- نبيل حنفي ٢٤
  «الألفاظ الأعجمية في القرآن.. ١٠ سنوات من البحث..واجتهاد في ٧٠٠ صفحة».
- من إعجاز القرآن، تأليف: رءوف أبو سعدة
- أحمد عثمان ٢٦
  «مكتبة الإسكندرية لم تكن يونانية».
- نسيم مجلي ٣٠
  «عمرو بن العاص لم يحرقها.. مكتبة الإسكندرية ومدارسها العلمية».
  The Lobrary of Alexandria، تأليف: روى ماكليود
  History of Eastern Christianity، تأليف: عزيز سوريال عطية
- يوستين جوردر ٣٦
  «الكتب في عالم بلا قراء!».
- محمد عبد الرحمن يونس ٤٤
  «الصين الجديدة.. في ظل سياسة الإصلاح والانفتاح».
- إبراهيم عبد الجليل ٥٠
  «من ريو إلى جوهانسبرج.. هل هناك جديد؟».
- عفاف عبد المعطى ٥٤
  «نبوية موسى.. شاعرة».
- ناصر الرباط ٥٨
  «قل لي كيف تنظر.. أقل لك من أنت.. رواية من الأدب التركي الحديث».
  My Name is Red، تأليف: أورهان ياموك
- فتح الله الشيخ ٦١
  «دماغ الإنسان.. جغرافيا جديدة».
- جلال أمين ٦٦
  «التغريب والاغتراب في تقرير التنمية «الإنسانية» العربية».
  تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٢. المحرر الرئيسي: نادر فرجاني
- أيمن الصياد ٧٠
  «بريد العرب والأمريكيون إغلاقها.. قناة الجزيرة».
  Aljazeera، تأليف: محمد النواوي وعادل إسكندر
- قراءات جديدة ٧٢
- عروض موجزة ٧٦
- رسائل ٨٠
- سلامة أحمد سلامة ٨٢
  «نون».. «الصعود إلى الغابة السوداء».

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

كتّاب العدد:

- إبراهيم عبدالجليل.. رئيس جهاز تخطيط الطاقة والرئيس السابق لجهاز شئون البيئة.
- أحمد عثمان .. باحث فى التاريخ المصرى القديم.
- أنطونى كوردسمان.. أستاذ كرسى «أرلى ديرك» فى الاستراتيجية.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- جلال أمين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- ريتشارد راسل .. محلل سياسى وعسكرى، وأستاذ فى جامعة الدفاع الوطنى.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- عفاف عبد المعطى.. باحثة فى الأدب المقارن بجامعة القاهرة.
- فتح الله الشيخ .. أستاذ علم الطبيعة بجامعة جنوب الوادى.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد عبد الرحمن يونس .. محاضر فى جامعة الدراسات الأجنبية ببكين.
- ناصر الرباط.. أستاذ العمارة الإسلامية بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T).
- نبيل حنفى محمود .. أستاذ بكلية الهندسة - جامعة المنوفية.
- نسيم مجلى.. ناقد أدبى.
- يوستين جوردر.. روائى نرويجى.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - سعد الدين شحاتة - محمد حاكم - أحمد اللباد

يحظر النسخ أو الطبع أو التصوير على دعامات ورقية أو عبر الحاسبات لكل أو بعض المقالات المنشورة أو أجزاء منها، بغير إذن كتابى مسبق من الناشر.

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بر عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص.ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهـ البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليـ الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنا اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Europe $3 - USA $5

في ظل سياسة الإصلاح والانفتاح، التي انتهجتها الحكومة الصينية، شهد المجتمع الصيني تحولاً كبيراً في المفاهيم والقيم والأخلاق. ففي الصين ومع هذه السياسة «صار كل شيء موجوداً، أمّا في هونج كونج فصار كل شيء مباحاً»، على حدّ تعبير الصينيين المعاصرين. وإذا كان كل شيء موجوداً في الصين، فإن كلّ شيء مسموح به، ما عدا انتقاد الحكومة الصينية والتظاهر ضدّها.

وتحاول هذه المقالة أن ترصد أهمّ مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية، وقد قصدت من إعدادها إعطاء القارئ العربي لمحة عن الصين المعاصرة في ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح التي قادها زعيم الحزب الشيوعي السابق دنج شياو بنج، والتي أطاحت بأنصار الزعيم ماو تسي تونج، وبالمقربين منه، من زعماء السلطة السياسية، والتي أسست لمفاهيم وقيم رأسمالية جديدة لم تكن سائدة في مجتمع الصين وعلاقاته في حقبة الزعيم ماو تسي تونج.

في البداية أحبّ أن أشير إلى أنه إذا كان من المعروف أنّ ثمة أمراضاً مزمنة تتحكم في علاقات مجتمعات بلدان العالم الثالث كالرشاوى والفساد والسرقات والمحسوبيات والعلاقات الشخصيّة والبيروقراطيّة الإدارية والعمولات، فإنّ الصين المعاصرة بدأت تغصّ بهذه الأمراض التي أخذت تنخر جسد المجتمع الصيني وروحه، وتفتته وتقسمه طبقياً، بحيث يزداد الفقراء فيه فقراً والأثرياء ثراء. وذلك في ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح، إذ يعتقد كثير من الصينيين المعاصرين أنّ في هذه السياسة خلاصاً اقتصادياً واجتماعياً وإنسانياً من مشاكلهم وأمراضهم السياسية و الاجتماعية، وأنّها ستحقق لهم أحلامهم في الثراء والرفاهية، التي لم تتحقق في حقبة الرئيس ماو تسي تونج.

وأحبّ أن أشير إلى أنه نظراً لما عانته الصين من الاستعمار الأجنبي الطويل، ومارافق هذا الاستعمار من ظلم للشعب الصيني، وقهره، واستغلال خيراته، قد تشبّعت نفوس الصينيين بحساسية شديدة ضدّ أي أجنبي يقيم على الأراضي الصينية، ويعمل في مؤسسات الصين. فبعد أن استولى ماو تسي تونج على مقاليد السلطة في الصين، قامت السلطات الصينية بمصادرة أملاك الإقطاعيين وتوزيعها على أفراد الشعب، وأمّمت المصانع العائدة لطبقة الرأسماليين، وطردت جميع الأجانب المقيمين على الأراضي الصينية - باستثناءات جدّ محدودة، تشمل مجموعة من الأشخاص المساندين للثورة الصينية والفاعلين فيها. ولم يستطع الصينيون المعاصرون بعد أفول نجم ماو تسي تونج وسياسته الاشتراكية، وسيادة سياسة

الصين الجديدة .. في ظل

محمد عبدالرحمن يونس

الانفتاح، وعلاقات السوق، ورأس المال، أن يخفّفوا من هذه الحساسية التي سرعان ما تظهر على وجوههم وفي مواقفهم، وفي انفعالاتهم، وممارستهم اليومية، كلّما لاحت الفرصة لها. فالصينيون المعاصرون كتومون، وحذرون جداً من الأجنبي، سواء أكان أوروبيا أو أمريكياً أو عربياً، أم غير ذلك، ويحاولون دائماً أن يخفوا عنه ما يجرى في الصين المعاصرة، على المستوى السياسي والاجتماعي والإنساني والثقافي. ونجد أنّ هذه الحساسية تنفجر في أحيان كثيرة لتصبح عنصرية ضدّ الأجنبي وبغضاً له. وإذا كان المثقفون الصينيون المعاصرون الكثيرون الذين زاروا العالم العربي، وعاشوا في مدنه، وتفاعلوا مع سكانه وعاداتهم وتقاليدهم، يكنون احتراماً لهذا العالم، ويصفون أهله بالكرم والوفاء ومساعدة الغرباء بإنسانية عالية، فإنّ قسماً كبيراً منهم لم يستطيعوا أن يتخلّصوا من حساسيتهم ضدّ الأجنبي، وظلّوا يتعاطون مع العربي زائر الصين بحذر وريبة وشكّ.

إنّ الصيني، على الرغم من اتساع الصين، وشساعة أراضيها (٩,٦ مليون كيلو متر مربع، أي أنها من حيث المساحة في المركز الثالث في العالم بعد روسيا وكندا)، وعدد سكانها المذهل (بلغ عدد سكان الصين حتى نهاية عام ١٩٩٨م، ١,٢٨٤ مليون نسمة، عدا سكان مقاطعة هونج كونج ومقاطعة تايوان، ومنطقة ماكاو) يحذر الأجنبي، ويضعه دائماً في دائرة الشكّ والحذر، وعدم الثقة بنواياه الخبيثة أو الطيبة، ويحاول دائماً أن يخفي عنه ما جرى ويجرى في الصين.

بدأت بوادر الطفرة الرأسمالية تتجلّى واضحة في الصين ابتداء من عام ١٩٩٣م، ودخلت في أهم معاقل الشيوعية الصينية في بكين، وهو ميدان (تيان آن مين)، وقاعة الشعب الكبرى الموجودة في هذا الميدان، فقد افتتح بار (كاراوكي) الضخم بجوار بوابة مدينة الصين القديمة، وكان يُقدم في هذا البار أغاني (البوب) متزامنة مع صور الفيديو، وكانت تعقد في هذا البار علاقات الجنس المحرمة، وقد حظيت هذه البوابة التي يرجع تاريخ تشييدها إلى عهد الإمبراطور الصيني (يونج) في القرن السادس عشر - الذي ينتمي إلى أسرة مينج الإمبراطورية التي حكمت الصين ما بين عام ١٣٦٨ حتى عام ١٦٤٤م - برعاية كبيرة من الحكومة الصينية لأنها من أهم المعالم الأثرية القومية في الصين. وقد علل مدير البوابة (هو بى يون) - في ذلك

الوقت - سبب افتتاح هذا البار قائلا: (لانستطيع التفكير فى حماية آثار الصين من دون الأموال الكثيرة).

وجرياً وراء سياسة الكسب السريع وجمع المال من أىّ مصدر كان، شرعت الحكومة الصينية فى فتح الأماكن المحرّمة للسياح الأجانب، فقد فتحت بوابات المدينة المحرمة فى ميدان تيان آن مين فى عام ١٩٨٨م، وأقامت فيها مقاهى وحوانيت مليئة بالهدايا. أمّا قاعة الشعب الكبرى الموجودة فى هذا الميدان، والتى تعد مقرّ الحكومة الصينية الرئيس، والتى كانت قلعة محرّمة أيام ماو تسى تونج، فقد افتتحت أمام عامة الناس فى عام ١٩٧٩م.

تعمد إلى إجراء غير إنسانى وغير حضارى، نابع من العقلية المتزمتة المنغلقة والضيقة والحذرة التى يفكّر من خلالها القائمون على سياسة التعليم العالى فى الصين، وهو: أن كليات هذه الجامعات عندما تعقد اجتماعاتها الدورية لأعضاء هيئة التدريس، فإنها لا تدعو أىّ عضو هيئة تدريس أجنبى فيها، مهما كانت درجته العلمية إلى حضور هذه الاجتماعات. ويعلل القائمون على هذه الكليات عدم دعوة أعضاء هيئة التدريس الأجانب بأسباب غريبة منها: إنّ لنا فى الصين عقلية خاصة بنا، ولنا ظروف وخصوصيات وطريقة عمل وتفكير مغايرة لظروفكم وطبيعة تفكيركم، ولذا لا

سنوات قليلة لن تكون الصين شيوعية حتى اسما، فقد تظلّ بلدا قوميا وعسكريا وكارها للأجانب).

بعد موت ماو تسى تونج (١٩٧٦م)، كرّس دنج شياو بنج الرجل القوى فى الدولة جميع جهوده للتخلص من المتطرفين - أنصار ماو - وعلى رأسهم: زوجته جانج شنج، وياو وين يوان عضو اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعى، ووانج هنج ون نائبه فى رئاسة الدولة، وشانج تشو شياو زعيم الراديكاليين فى اللجنة المركزيّة

ويقدّمهما إلى المحاكمة بتهم عديدة منها: أنهما من أنصار عصابة الأربعة، وأنهما لا يزالان يؤمنان بأهداف هذه العصابة، بالإضافة إلى تورطهما فى عدّة مجازر دمويّة ارتكبت فى ضواحى بكين.

ويخلو الجوّ لدنج شياو بنج، وتبدأ بوادر سياسة الإصلاح والانفتاح تظهر فى الساحة الصينية، فتبدأ الفرق الموسيقية الأوروبية بالتوافد إلى الصين للغناء والرقص فيها، فقد كانت الصين أرضاً بكرًا بالنسبة لهذه الفرق التوّاقة لنشر فنّها، ويمكن أن تدرّ عليها أموالا كثيرة، وذلك نظراً لتشوّق الصينيين العارم نحو ما يجرى فى العالم المعاصر، وتحديدا أمريكا وأوروبا. ففى عام ١٩٧٩م زارت فرقة الباليه

سياسة الإصلاح والانفتاح

وقد سنت الحكومة الصينية سياسة تمييز مالية ضدّ الأجانب المقيمين على أراضيها أيّاً كانت جنسياتهم.

ومن مظاهر هذه السياسة أن المقيم الأجنبى يدفع فى العيادات الطبيّة الخاصّة والعامة الخاضعة لقانون الضمان الصحىّ أكثر مما يدفعه الصينى، فعلى سبيل المثال يدفع الصينى الخاضع لصندوق الضمان الصحىّ يواناً واحداً رسم بطاقة الدخول إلى مشفى الجامعة أجرة الكشف الطبىّ، بينما يدفع الأجنبى الخاضع لهذا الصندوق نفسه خمسة يوانات وأحيانا عشرة يوانات.

ومن مظاهر سياسة التمييز التى سنتها الحكومة ضدّ الأجانب أنها حرّمت على الأجانب المبيت فى الفنادق الرخيصة التى ينام فيها الصينيون، وفرضت عليهم النوم - إذا ما اضطروا - فى الفنادق عالية الأجر وذوات النجوم العديدة، والتى تبلغ أجور المبيت فيها (٨٨) دولارا فما فوق فى الليلة الواحدة. وقد سألت صديقاً صينيا عن سبب ذلك، فقال: إنّ الخدمات التى تقدّم لزبائن الفنادق الراقيّة عديدة ومتميّزة، وهى تعكس الوجه الحضارى والمتطوّر للصين. ويطمح القائمون على هذه الفنادق - لقاء تقديمهم هذه الخدمات المتميزة - إلى كسب المزيد من الأموال التى يدخلها الأجانب إلى الصين عند زيارتهم لها، وهؤلاء الأجانب كثيرون جداً. أمّا الفنادق الرخيصة - التى هى مقصورة على الصينيين - فإنها تعكس الوجه السلبى للصين، وقاع المجتمع الصينى، إنها تعرّى هذا المجتمع من قشرته الخارجيّة، وتكشف عن المهمّشين والمستلبين فيه، وهى فى آن تعكس أمراض هذا المجتمع، حيث تمتلئ هذه الفنادق ببائعات الهوى، وبالمدمنين على المخدرات، وبالمقامرين، بالإضافة إلى أن أجور هذه الفنادق رخيصة جدا، إذ لا تتجاوز أجرة الواحد منها (١٢٥) يواناً فى الليلة الواحدة.

ومن مظاهر سياسة التمييز المالى ضدّ الأجانب فى ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح هى تلك التى تتّخذها الجامعات الصينية ضدّ الأساتذة الأجانب العاملين فيها، إذ إنّ بعض هذه الجامعات تقدّم مكافآت مالية للأساتذة الصينيين، علاوة على رواتبهم، كلّ فصل دراسى وأحيانا كل شهرين، ومنها جامعة الدراسات الأجنبية فى بكين، فى حين أنها تمنع هذه المكافآت عن الأساتذة الأجانب الذين يعملون مع زملائهم الصينيين، مع العلم أن الأساتذة الأجانب يحملون شهادات علمية أعلى من شهادات الصينيين، ويدرّسون حصصا أكثر من تلك التى يدرّسها الصينيون. ولا تكتفى الجامعات الصينية بهذا التمييز فحسب بل

ندعوكم إلى حضور هذه الاجتماعات التى يحضرها زملاؤكم الصينيون حتى لا تتدخّلوا فى ما لا يعنيكم، وبالتالى تسببوا لنا حرجا. وهذا إجراء غير موجود فى جامعات العالم الأخرى العربية والأجنبية، ولعلّ الجامعات الصينية هى الوحيدة فى العالم التى تتّخذ مثل هذا الإجراء.

يضاف إلى ذلك إجراء آخر يبدو غريبا جداً، ولا يوجد فى أىّ بلد من بلدان العالم إلا فى الصين وحدها، وهو: ما يتعلق بالنشر فى الدوريات العلمية التابعة لكليات الجامعات الصينية، فالقائمون على إصدار هذه الدوريات الأكاديمية لا يدعون أى أستاذ أجنبى للمشاركة فى الكتابة فى هذه الدوريات، بل يحرمونه من المشاركة إن أبدى رغبة، والسبب بسيط جدا كما أكّد لى أحد زملائى العرب العاملين فى جامعات بكين. فهذه الدوريات تقدم مكافآت مالية لأصحاب الأبحاث الأكاديمية المنشورة فيها، والصينيون يريدون أن يأكلوا الكعكة وحدهم، ولا يريدون للأجنبى أن يشاطرهم فيها، مع العلم أنّ هذه الإجراءات لم تكن موجودة فى حقبة ماو تسى تونج، كما يؤكّد الذين عايشوا هذه الحقبة، ولا يزالون يعايشون ما يجرى فى الصين المعاصرة، بل هى وليدة سياسة الإصلاح والانفتاح الجديدة التى بدأت بعد ماو تسى تونج. ويقول كريستوفر هيتشنس: (من المحتمل أنّه بعد

للحزب الشيوعى الصينى، ويطلق الصينيون المعاصرون على هؤلاء (عصابة الأربعة). ولم يكن ماو تسى تونج فى حكمه راضيا عن دنج شياو بنج، فأقصاه عن منصبه كنائب رئيس للحكومة أول مرّة فى عام ١٩٦٦م، بتهمة الرجعية والبيروقراطية، ومحاولة الالتفاف على الأيديولوجيا العامة للدولة وللحزب الشيوعى الصينى الذى يتزعمه ماو. ثمّ أقصاه للمرة الثانية عن المنصب نفسه وقبل وفاته فى عام ١٩٧٦، لإسهامه فى صراعات سياسية كان هدفها الاستيلاء على السلطة. وما إن يموت ماو تسى تونج حتى يعود دنج شياو بنج إلى منصبه ثُمّ فى ما بعد، فى عام ١٩٧٧م، يصبح أقوى رجل فى السلطة، ويطرح برنامجًا اقتصادياً يطمح من خلاله إلى تحديث الدولة صناعيا وتكنولوجيا وتجاريا، فيفتح أبوابها على العالم الخارجى بصناعاته واستثماراته وتجارته واقتصاده الحرّ، ويعمل على إصلاح هيكلية الدولة السياسية والأيديولوجية، ويتخلّص من خصومه السياسيين ومن الأطر والقيادات التى تبنّت أفكار ماو تسى تونج، واحدا بعد الآخر، ويطرح مفاهيمه وشعاراته الخاصة التى تفتح عيون الصينيين صوب الثراء والمال والرأسمالية واقتصاد السوق الحرّة، ويعزّز علاقات الصين مع أمريكا، بعد أن كانت مقطوعة بشكل كامل أيام ماو تسى تونج، وتفتتح أمريكا سفارتها لأول مرّة فى بكين، ويُعين ليو نارد وود كوك سفيرا فيها. وفى عام ١٩٧٩م يستطيع دنج شياو بنج بذكاء أن يتخلص من رجلين قويين فى الدولة، وهما: شن وانز، و دانج وانتيان، القائدان السابقان للحرس الأحمر الصينى،

الراقصة البريطانية مدينة بكين، بدعوة رسمية من الحكومة الصينيّة، وظلّت هذه الفرقة ترقص لعشرة أيام متواصلة على مسرح بكين الكبير.

لقد زرع دنج شياو بنج فى نفوس الصينيين رغبة عارمة فى التطلع إلى حضارة أمريكا والغرب الأوروبى، وقد رأى أنّ خلاص الصين من أيديولوجية ماو تسى تونج الضيقة والمتزمّتة، لا يمكن أن يكون إلا بالانفتاح على الغرب وأمريكا، وبكل ما يأتى منهما، فأصبح الصينيون تواقين لزيارتهما، تدفعهم رغبة عارمة فى معرفة ما يدور فيهما. وتشير جملة المفاهيم والمقولات التى طرحها دنج، بشكل أو بآخر إلى السير باتجاه الرأسمالية واقتصاد السوق، هذه المقولات التى لا يزال الصينيون المعاصرون يرددونها حتى الآن. ومنها: «لا يهمّ من أين تتسلق قمّة جبال إيفريست. من الشمال أم من الجنوب طالما أنك ستصل القمّة فى النهاية». و: «ما أروع أن تكون ثريا وغنيا». و: «يجب التشدد فى الداخل والتساهل مع الخارج». وعُرف عنه أنّه كان يردد مقولة صينية قديمة: «المجد لمن يصبح غنيّا». ومن أقواله المعروفة فى الصين: «لا يهمّنا إن كان القط أبيض أم أسود بل يهمّنا فى المحصلة الأخيرة أن يصطاد الفئران أنّى كانت».

إنّ كثيراً من الصينيين المعاصرين يعتقدون أنّ هذا القول الأخير صائب تماماً. وهذا القول يشير بشكل واضح إلى أنّه لا يهمّ إذا كانت الصين اشتراكية أم رأسماليّة، طالما أنها تسير فى طريق الإصلاح والانفتاح والتقنيات الحديثة صناعيا وزراعيا، و طالما أنها تسير فى طريق يهدف أولا وأخيرا إلى الثراء الكبير، وشدّ الاستثمارات الأجنبية وتكديس الأموال فى بنوك الصين، ودفع عجلة الاقتصاد الصينى باتجاه اقتصاد السوق.

لم يكن ماو تسى تونج فى حكمه راضيا عن دنج شياو بنج، فأقصاه عن منصبه كنائب رئيس للحكومة فى عام ١٩٦٦، بتهمة الرجعية والبيروقراطية. ثمّ أقصاه للمرة الثانية عن المنصب نفسه وقبل وفاته فى عام ١٩٧٦، لإسهامه فى صراعات سياسية

وتأكيدا لانفتاح سياسة دنج شياو بنج صوب أمريكا والغرب الأوروبى، وإعجابه بهما فقد قام بأول زيارة له إلى أمريكا فى ٢٩ شباط/ فبراير ١٩٧٩م، وقد أرسى من خلال هذه الزيارة أسس التعاون الأمريكى الصينى، إذ اقترنت هذه الزيارة «بالتطبيع الرسمى الكامل للعلاقات الأمريكية - الصينية. وكانت جولته هذه بمنزلة ملتقى جامع بين البلدين. وكان من دواعى سرور وسائل الإعلام الصينيّة والأمريكية على السواء، أن عاش دنج، بحماس تجربته الأمريكية، [إذ] ارتدى قبعة رعاة البقر فى تكساس. وشارك فى مباراة الرودييو لرعاة البقر هناك. وتناول طعامهم على طريق الباربكيو، واعتاد أينما ذهب، أن يشجّع ويحثّ

الصين الجديدة

وسائل الإعلام الصينية المرافقة له، أن ترسل إلى الوطن صورا توضّح مدى التقدّم التكنولوجي الأمريكي، وضخامة المباني، وارتفاع مستوى معيشة العمال الأمريكيين».

وقد حققت هذه الزيارة فيما بعد لأمريكا مكاسب كبيرة، إذ فتحت أبواب الصين أمام المستثمرين والشركات الأمريكية الكثيرة، وفتحت شهية رجال الأعمال الأمريكيين إلى الأسواق الصينية ذات القدرات الاستهلاكيّة العالية. وفي عام ١٩٨٠م أصدر دنج شياو بنج «قانون الاستثمارات المشتركة وأنشأ اللجنة الجديدة للاستثمارات الأجنبية. ومع أنّ العلاقات التجارية مع العالم الخارجي كانت قائمة منذ زيارة ريتشارد نيكسون في العام ١٩٧٢م، فإنّ هذين التغيرين في السياسة كانا بداية ازدهار الصين المعاصر. كان معناهما أنه بوسع الشركات الأجنبية أن تنشئ شركات لا بمشاركة الصين، وأنه يمكن بسهولة نقل الرساميل والتكنولوجيا، وأمكن بالتالي، وهو الأهم عقد القروض الأجنبية الحكومية والخاصة. والخطير كذلك أنّ الشؤون التجارية خرجت من سيطرة السلطة المركزيّة، ورجال الأعمال الأجانب أصبحوا قادرين على التفاوض مباشرة مع المصانع، متجاوزين بذلك البيروقراطية والرشوة بعد أن كانت تمرّ هذه المفاوضات عبر الوزارات في بكين سابقاً.

وكان من نتائج هذه الزيارة أن وافقت الحكومة الصينية لبنك «أوف أميركا» بفتح فرع له في مدينة بكين العاصمة، ويعدّ هذا الفرع أول مصرف أمريكي يُنشأ في الصين منذ طرد المصالح الأجنبية من الصين في عام ١٩٤٩م.

وفتحت الزيارة شهية الصينيين للشراء والامتلاك، وبخاصة امتلاك الأدوات الكهربائية الحديثة، وظهرت نزعة كبيرة لدى جيل الشباب المعاصر إلى تقليد الأمريكيين في المأكل والمشرب والملبس، ورافق ذلك موجة من الاحتجاجات ضدّ الحكومة الصينية، مطالبة برفع مستوى المعيشة، وخفض أسعار المواد الغذائية، وانتشرت ظاهرة السوق السوداء في بكين وبقية المدن الصينية، وعبّر كثير من الناس عن رغبتهم العارمة في التخلص من مظاهر ضغط الأيديولوجية الحزبية، ومن أفكار ماو تسي تونج التي اعتبروها متشددة ومتطرّفة، وتحرّرت النساء من كثير من القيود، التي فُرضت عليهنّ أيام ماو، كاللباس المحتشم والابتعاد عن استخدام الماكياج والإفراط في الزينة، وعدم مخالطة الرجال الأجانب. وأقبلت بعض النسوة على خطوة جريئة وجديدة ما كان لها أن تكون في عهد ماو، فقد شوهدت الفتيات الصينيات الجميلات «في المرابع الليلية في شانغهاي وهنّ يراقصنّ الأجانب وقد أزعج ذلك المسئولين، وقامت الشرطة باقتحام بعض هذه الأماكن وطرد الفتيات، وكذلك تعرّض العديد من المراهقين للتأديب من قبل رجال الأمن بسبب إقدامهم على الرقص ليلاً في الشوارع».

وبرزت على الساحة الفنيّة المطربة الشابة الجميلة دانج لي جون التي اجترأت وغنّت أغاني مغايرة لأيديولوجية الغناء الصيني المصبوغ بشعارات الثورة والعمال والفلاحين والنضال، خارقة بذلك نسق الغناء السائد أيام ماو تسي تونج، مع العلم أنّ نظام ماو كان يحارب محاربة شديدة تلك الأغاني التي لا تمجّد الثورة والثوار والعمال والفلاحين، وتمجّده في أحيان أخرى، وكان دائما يحارب الموسيقى الغربية لأنها تسهم في إفساد الشباب طليعة الثورة، وقد حدّ من انتشار هذه الأغاني، حتى كان يقال إنّ من كان (يصغي إلى الموسيقى الغربيّة يبعث إلى مزرعة الخنازير في منغوليا)، عقوبة وتأديباً له.

وفيما بعد دخلت الموسيقى الغربيّة، وموجات الرقص بجميع أنواعه وأشكاله إلى الصين. وفي هذه الأيام يوجد في مدن الصين الكبيرة والصغيرة مراقص وملاه وقاعات فخمة للهو والسكر والعربدة، لا تضاهيها مراقص لندن وواشنطن وباريس، وغيرها من العواصم العالميّة. وتراقص النساء الصينيات من تشاء وعلى مرأى رجال البوليس ومسامعهم، وتسكر، وتتعاطى الحشيش والمخدرات، وتمارس الجنس تجارة، وتتاجر بكل شيء طمعاً في الثراء السريع. ولا تتركز دور اللهو والمراقص في أحياء المدن الكبرى فحسب، بل إنها تزحف إلى الجامعات والمعاهد العلميّة، ففي الجامعات توجد مراقص للطلبة تغصّ بالراقصين والراقصات من الطلبة وغير الطلبة، وبخاصّة في مساء يومي الجمعة والسبت، لأنّ العطلة الرسميّة في دوائر الدولة الصينية تكون في يومي السبت والأحد.

إنّ من يتجوّل في هذه الأيام في شوارع بكين، فإنه لن يشاهد أولئك النسوة اللاتي كنّ يرتدين الملابس الخشنة والقاتمة الداكنة كملابس الرجال أيام ماو، واللواتي تُنبئ ملامحهنّ بالعزم والجديّة والصلابة، بل سيشاهد نساء في منتهى الأناقة والزينة والتبرج، والملابس القصيرة جداً، والشورتات الساخنة الفاضحة، وقد تخضبنّ بالطيب وأحدث عطور العالم، وهنّ يتعمدن المشي بدلال وغنج، حتى تظهر مفاتنهنّ الأنثويّة المثيرة.

أعود إلى دنج شياو بينج لأقول: إنّ العلاقات الأمريكية الصينية شهدت في عهده تطورا ملحوظا على المستوى التجاري والاقتصادي والسياسي، فالصينيون متعطشون لإقامة علاقات مع أمريكا، ومندفعون اندفاعاً لا مثيل له، في تطبيع جميع أشكال العلاقات معها، فأمريكا في نظرهم السوبرمان، والقوة العظمى التي لا تقهر؛ وهم يطمحون إلى الاستفادة من علومها وتقاناتها الصناعيّة والعسكرية. وقد وعت أمريكا حاجة الصين الماسة إلى مثل هذه العلاقات، فاستثمرت هذه الحاجة، وفرضت شروطها على الصين، طالبة منها أن تسمح لها بإنشاء القواعد العسكرية على أراضيها، فقد «أقام الأمريكيون في كسينجيانج [شينجيانج] قاعدتين للاستخبارات تحلان محل القواعد التي كانت موجودة في إيران قبل نظام حكم الخميني. ومن الناحية النظرية تدار هاتان القاعدتان بالاشتراك مع الجيش الصيني، إلاّ أنهما تخضعان في واقع الأمر إلى وكالة المخابرات المركزيّة الأمريكيّة التي تراقب قواعد الصواريخ السوفيتية في وسط آسيا».

وأسهمت أمريكا إسهاما واضحا في تعزيز الترسانة الحربية الصينية وتطويرها، فقد وقّعت بكين مع واشنطن عام ١٩٨٤م، وقبيل زيارة الرئيس ريجن إلى بكين اتفاقا نووياً «يكفل تيسيرات هائلة لتنمية الصناعة الصينية وربما يساعد أيضا على تصنيع رؤوس نووية، فالصين لديها مجموعة متواضعة من الصواريخ دونج فانج (رياح الشرق) تضمّ صواريخ عابرة للقارات وقادرة على ضرب أي مدينة سوفيتية، فضلاً عن مقذوفات متوسطة المدى. كما يوجد في الصين خمسة وأربعون منجما لليورانيوم، وخمسة مصانع لمعالجة اليورانيوم والبلوتونيوم. وثمة أمر له أهميّة بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية هو قدرة الصين على صناعة المنتجات الإشعاعية والتي تقدر بـ (١,٢) طن سنويا وهو ما يكفي لتموين قرابة خمسة وسبعين رأسا نووية سنوياً، ويزيد عن احتياجاتها».

ولم يكن التعاون الصيني الأمريكي في مجال التسليح تعاونا نظيفاً يخدم السلام العالمي، بل كان تعاوناً وظيفياً يهدف بالدرجة الأولى إلى زيادة هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على الدول الأخرى. ويسهم أيضا في كبح جموح الأعداء التقليديين للصين وأمريكا معاً، وهم الروس واليابانيون، فالصين مستعدة لأن تقدّم لأمريكا كلّ شيء نكاية بالعدو التقليدي الأيديولوجي للصين، وهو الاتحاد السوفيتي (سابقا). وكانت أمريكا مستعدة أن تقدّم المزيد للصينيين، وتدغدغ أحلامهم في الثراء والوصول إلى مصافّ الدول المتقدمة تكنولوجيا، حتى لا يحدث أي تقارب بين الصين والاتحاد السوفيتي من جهة، وبين الصين واليابان من جهة أخرى، فقد كانت مهمة الوجود الأمريكي في الصين - وبالدرجة الأولى - تهدف إلى «حماية المصالح الاقتصادية الأمريكية، وفي هذا الشأن، يسهم التحالف مع الصين إسهاما ضمنيًا في وقف التوسع الياباني في جنوب شرقي آسيا وفي منطقة المحيط الهادئ».

ومع تكريس سياسة الإصلاح والانفتاح وتجذّرها في بنية الدولة الصينية، صارت أمريكا قبلة الصينيين، وأصبح الحلم الأكبر بالنسبة للصيني زيارة أمريكا، أو الهجرة إليها، أو الدراسة في جامعاتها لأنها تمثّل في نظره صورة عن الجنة الأرضيّة، ففيها التقدم العلمي والمعرفي، وفيها الحريات الفردية، وفيها الثراء والمال، وفيها التحرر من قيود العائلة وضغط المجتمع، والتزمت السياسي والأيديولوجيا السياسية الضيقة. إنها بصراحة - كما يؤكد الصينيون - منبر للحريات الفكريّة والسياسية، ويستطيع الفرد فيها أن يفعل ما يشاء، وإن كان نشيطا يستطيع أن يجني الأموال الكثيرة، وأكدوا أن ما تنتجه أمريكا من ثقافة، وأدب وفن وسينما هو النموذج الأمثل والأكثر رقيا إلاّ أنّ كثيرا من المثقفين يؤكدون أنّ الغزو الثقافي الأمريكي النشيط للصين سيشكّل خطراً كبيراً على أخلاق الصينيين، وأنّ أفلام الجنس الأمريكيّة الموجودة على أقراص (DVD -CD)، ستسهم - في المستقبل - في إفساد جيل الشباب، وابتعاده عن الأخلاق البوذيّة أو الكونفوشيوسية الفاضلة، وستسهم في تفتيت الأسرة الصينيّة التي شُكلت تأسيساً على الوفاء الزوجي، وعدم الخيانة الزوجيّة، واعتبارها عملاً محرّماً ومنافياً للأخلاق الفاضلة التي دعا إليها بوذا وكونفوشيوس.

وتشير الإحصائيات إلى عدد الطلاب الصينيين الذين درسوا في أمريكا وتخرّجوا في جامعتها، ففي السنوات السابقة على عام ١٩٥٤م، حصل الطلاب الصينيون على (١٣٧٩٧) شهادة جامعية أمريكيّة، وعلى (٢٠٩٧) شهادة عليا بدرجة دكتوراه، «وبحلول عام ١٩٦٤ كان ثلاثة أرباع أعضاء مجلس إدارة وأعضاء اللجنة الدائمة للأكاديمية الصينية للعلوم قد تلقوا تدريبا غربيا»، وفي عام ١٩٨٥م، جاء إلى أمريكا (٨٠٠٠) طالب فقط، مما أزعج هذا العدد القليل، الطلاب الصينيين الذين لم تتح لهم الفرصة للقدوم إلى أمريكا، إذ «وجّه

تشير جملة المفاهيم والمقولات التى طرحها دنج، بشكل أو بآخر إلى السير باتجاه الرأسمالية واقتصاد السوق، هذه المقولات التى لا يزال الصينيون المعاصرون يرددونها حتى الآن. ومنها، « لا يهمّ من أين تتسلق قمّة جبال إيفريست. من الشمال أم من الجنوب ما دمت ستصل القمّة فى النهاية ».

أكثر من ألف طالب منهم كتاباً مفتوحاً للحكومة الصينيّة يعربون فيه عن قلقهم تجاه التخفيض، ويعارضون الإجراءات الجديدة التى تحدد عدد السنوات التى يقضيها الطلاب الموفدون رسمياً فى الولايات المتحدة بسنتين لشهادة الماجستير وخمس سنوات للدكتوراه». وفى عام ١٩٨٨م، أوفدت لجنة التعليم الصينية (٦٠٠) طالب إلى أمريكا، بينما قامت الجامعات والأكاديميات الصينية بإرسال أربعة آلاف إلى جامعات أمريكا وقد حضر طلاب جاءوا بقصد الدراسة على نفقتهم الخاصة، وعددهم من (٢٠٠٠) إلى (٣٠٠٠) طالب وطالبة. ومعظم هؤلاء الطلاب يميلون إلى الاهتمام بالإنسانيات والعلوم الاجتماعية والقانون والتاريخ وعلم الأجناس والأدب الإنجليزى والدراسات الأمريكيّة، وهندسة الراديو والفيزياء النووية، وتاريخ العلوم، وتتراوح أعمارهم بين الثلاثينيات والأربعينيات حتى الحادية والستين. وقد بلغ عدد الطلاب الصينيين الذين تخرّجوا فى جامعات أمريكا حتى عام ١٩٨٩م، مائة وعشرين ألف خريج تقريباً، بينما كان عشرون ألف طالب مسجلين فى هذه الجامعات.

وتصرّ النخبة السياسية الحاكمة فى الصين على إرسال أولادها لأجل الدراسة فى أمريكا، إذ يكونون هؤلاء فى مقدمة الموفدين، لأنّ هؤلاء السياسيين يعون تماماً أنه لا مستقبل علميّاً ولا سياسيّاً لأولادهم المدللين إن بقوا فى الصين. ويقول دوجلاس موراى، رئيس معهد الصين فى أمريكا: «يبدو أنّ لكلّ زعيم صينى ابناً أو ابنة فى الولايات المتحدة».

وبطبيعة الحال لن يرضى أبناء النخبة السياسية الحاكمة فى الصين، والمتواجدون فى أمريكا أن يعيشوا فى مستوى المعيشة التى يعيشها أبناء الشعب العاديّون، وذلك نظراً لثراء آبائهم الفاحش، ومراكزهم الطبقيّة سياسياً واجتماعياً فى مجتمع صينى، يقوم أساساً فى تركيبته على التباين الطبقى الحادّ فى ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح، إذ يعيش فيه نخبة سياسية واقتصاديّة وتجاريّة، تمتلك كلّ شىء، وتغرق فى الثراء الفاحش، بينما يوجد فيه تسعمائة مليون «من الفلاحين الذين يحتالون على العيش وسط أوضاع أشبه بتلك التى كانت سائدة فى العصور الوسطى. فهل يمكن للأغنياء أن يضعوا حياتهم ومصائرهم وسط هؤلاء الفقراء؟».

ولم تشهد الصين فى ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح تطوّراً مذهلاً فى علاقاتها مع أمريكا فحسب، بل أقامت علاقات سياسية واقتصاديّة وتجارية وعسكريّة متميّزة مع إسرائيل، وقد حاولت الصين أن تبقى هذه العلاقات سريّة، وأن تنفى ذلك دائماً فى المحافل العربيّة والدوليّة، خوفاً من إثارة حفيظة أصدقائها العرب، لكنّ الخبراء والمحللين السياسيين يعرفون تماماً أبعاد العلاقات الصينيّة الإسرائيليّة وخفاياها، و«يبدو أن ثمّة تجارة مستترة وشبه سريّة قد نشأت بين إسرائيل والصين فى قطاع الأسلحة، وهو ما تنفيه بكين بقوة. وقدّم الإسرائيليون إلى الصينيين معلومات تتصل بالدبابات والمدفعيّة. وقد ترددت فى عام ١٩٨٤م أقوال عن مبيعات من الأسلحة الإسرائيليّة تقدّر قيمتها بما يتراوح بين مليار وثلاثة مليارات من الدولارات، وذكرت صحف القدس أنّ قرابة مائتى مستشار إسرائيلى أسهموا فى تيسير عملية إدماج المعدّات المصنوعة فى بلادهم ضمن عتاد القوات المسلحة الصينيّة، وقد برّرت إسرائيل سياستها فى هذا الشأن بالإلماح إلى الأمن الشامل للولايات المتحدة الأمريكية والعالم الغربى».

إنّ من يتجوّل فى أسواق بكين التجارية الرئيسة، سيشاهد البضائع الإسرائيليّة فى هذه الأسواق، وقد شاهدت بامّ عينى شابات صينيات يرتدين سراويل وقمصان جينز إسرائيليّة، مكتوب عليها باللغة الإنجليزية: YATA (ISRAEL، و: (MADE IN ISRAEL) وعندما سألت إحدى الشابات: لماذا ترتدين ثياب جينز إسرائيلية، والصين من أكثر دول العالم إنتاجا لهذه الألبسة؟ أكّدت الشابة أنّ الجينز الإسرائيلى متميّز فى جودته، وهو أفضل من الصينى بكثير، وأكثر أناقة منه، ويضفى على المرأة جمالاً خاصا مقارنة بالصينى. مع ملاحظة أنّ الوجود الإسرائيلى فى الصين، كان معدوماً فى عهد ماو تسى تونج، حيث كانت الصين تخلو تماماً من الإسرائيليين واليهود من الجنسيات الأخرى، ومن أىّ مظهر من مظاهر الدعاية الإسرائيليّة، لأنّ الرئيس ماو تسى تونج كان يرفض رفضاً قاطعاً الوجود الإسرائيلى فى الصين. وقد قال لى صديق صينى - من أنصار سياسة الإصلاح والانفتاح - بشكل هادئ ومؤدب - مسوّغا قيام العلاقات الإسرائيلية الصينية: إننا فى الصين بحاجة ماسة إلى الخبرات الإسرائيلية المتطوّرة فى مجال التسليح والتكنولوجيا، ولذا فإننا نقيم علاقات وطيدة مع إسرائيل حتى نستفيد من هذه الخبرات، وذلك انطلاقا من مصالحنا وأهدافنا فى تطوير بلدنا وعصرنته.

إذا كانت الصين قد حققت قفزات واسعة، وتحت ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح، فى مجال الصناعات الخفيفة والثقيلة والتجارة الخارجيّة، والاستثمار، والتعليم والتكنولوجيا بشكل عام، فإنها أصبحت غارقة فى مشاكل عديدة تؤرّق الصينيين، وتحدّ من طموحهم لأن يصبحوا فى عداد الدول الحضاريّة المتقدّمة إنسانياً وعلمياً ومعرفياً، وهذه المشاكل كثيرة جداً، ولعلّ من أهمّها: مشكلة التلوّث، فالصينيون، بشكل عام، يستخدمون الفحم الحجرى للتدفئة، فى شتاءاتهم القاسية جداً، وهذا يعنى أنّ الدخان الملوّث بثانى أكسيد الكربون الناتج عن اشتعال الفحم الحجرى، سوف ينافس الغيوم فى سماء العاصمة الصينية بكين، ومعروف عن الصين أنها تستخدم الفحم فى إنتاج الطاقة بمعدل ٧٢ بالمائة. ويعدّ الفحم الحجرى مصدراً أساسياً لتلوّث الهواء فى العالم، ففى العالم يوجد عشرون مدينة كبيرة ملوّثة بفعل الفحم الحجرى، ومنها(١٦) ست عشرة مدينة موجودة فى الصين. وقد أسهم هذا التلوّث فى زيادة عدد المصابين بالأمراض الصدريّة، إذ بلغ هذا العدد فى الصين ضعف عدد المصابين فى جميع دول العالم الثالث.

ويشير أحد تقارير البنك الدولى إلى أنّ التلوّث يكبّد الصين خسارة سنويّة تُقدّر بـ (٥٤) مليار دولار، فالصين هى البلد الأكثر تلويثاً للبيئة فى العالم، إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية الأكثر استخداماً للطاقة. وقد اعتاد السياسيون فى بكين أن يديروا الأذن الصمّاء لنداءات علماء البيئة وتوصياتهم، إلاّ أنهم فى الآونة الأخيرة بدأوا يبحثون عن مصادر بديلة للطاقة، على الرغم من أنّ هذا البحث مكلف اقتصادياً. فالإنتاج الصينى من الفحم الحجرى هو ربع الإنتاج العالمى، والصين تحتوى على (٢٥) ألف منجم للفحم يعمل فيها (٤٠٠) ألف عامل بشروط وقائيّة متخلّفة. هذا وقد عمدت الحكومة الصينيّة، وأملاً فى الإسهام فى نظافة البيئة، إلى إقفال(١٣) ألف منجم غير شرعى، الأمر الذى دفع بضعة آلاف من العمال إلى رصيف البطالة، وهذا يعنى أنّ اهتمام المسئولين الصينيين بنظافة البيئة سيسبب لهم متاعب أخرى على الصعيد الإنسانى والاجتماعى والاقتصادى. فقد قررت حكومة بكين أن تستدين(٣٤٩) مليون دولار من البنك الدولى، لأجل الانتقال من استخدام الفحم الحجرى إلى استخدام الغاز الطبيعى فى التدفئة الجماعيّة وإنتاج الكهرباء.

ومن مشكلات الصين الكبرى مشكلة (تايوان)، فهى الجرح الأكبر فى حياة الصينيين بعامة، شعباً وحكومة، وقد اعتقد الصينيون أن انفتاحهم على أمريكا، وتطبيع العلاقات بأشكالها كافة مع الأمريكيين من شأنه أن يوقف الدعم الأمريكى لتايوان، وأن يوقف تأييد أمريكا لحكام تايوان، وتمرّدهم على وطنهم الأم (الصين)، غير أنّ حسابات الصينيين لم تكن صحيحة، فمهما كانت علاقاتهم متينة مع أمريكا، فإنّها لن تقف معهم ضدّ تايوان. ولقد أحسّ الصينيون فيما بعد بخيبة الأمل من نظرائهم الأمريكيين بشأن قضية تايوان، فها هو أحد الشبان، من أعضاء الحركة الديموقراطية التى قادت مظاهرات (تيان آن مين) ضدّ الحكومة الصينيّة، يعبّر عن رأى جيله من الشبان، فى موقف أمريكا من قضية تايوان قائلاً: «منذ سنوات عديدة كنّا نظن - عن سذاجة منا - أنّ الولايات المتحدة كانت تريد مساعدة الصين بدلاً من تخريبها، ولكننا اليوم مقتنعون جميعاً بأنّ حكومة الولايات المتحدة تريد تدمير الصين».

إنّ واشنطن تسعى دائماً فى أن تظلّ تايوان منفصلة عن الصين، وتعمل جاهدة على أن تعزّز فى نفوس التايوانيين الرغبة فى الانفصال، حتى تظلّ تايوان ورقة رابحة وضاغطة بيد أمريكا، وتستثمرها متى تشاء ضدّ بكين. وعندما زار الرئيس الحالى (جيانج تسه مين) الولايات المتحدة خريف ١٩٩٧م، بحث مع الأمريكيين مشكلة تايوان، وأوضح لهم «أنّ تايوان تظلّ القضية الأهم والأكثر حساسية فى العلاقات الصينية - الأمريكية. وحثّ الولايات المتحدة أن تتعامل بحذر مع مسألة تايوان. إلاّ أن أمريكا لا يمكن أن تتعامل بحذر مع مسألة تايوان، لأنها تشجّع علناً قادة تايوان لكى يظلّوا متمردين على نظام بكين، وتمدّهم بالأسلحة الحديثة، وتعزّز أسطولها البحرى المنتشر على سواحل تايوان، وهى مستعدة لأن تخوض حربا ضروسا ضدّ الصين، إذا ما فكّرت فى أن تسترجع تايوان عنوة، فـ«الولايات المتحدة سوف تردّ عسكرياً، إذا ما استخدمت الصين القوة لضمّ تايوان».

وعلى الرغم من محاولات الحكومة المركزيّة فى بكين التقارب مع النظام اللدود فى تايوان، فإنّ محاولاتها لم تفلح، لأنّ الرئيس التايوانى (تشين شوى بيان) معروف بعداوته الشديدة لنظام بكين، وبسعيه لإعلان طلاق نهائى بين بلاده والبرّ الصينى، فالصين تسعى جادة فى إقامة علاقات تجاريّة واقتصاديّة واسعة النطاق مع تايوان، لكنّ تايوان ترفض ذلك، وتفضل عليه تقارباً بطيئاً.

ومن مشاكل الصين المعاصرة، والتى تعمل حكومة بكين جادة

على القضاء عليها، مشكلة الجريمة، فقد كثرت الجرائم المتعددة في ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح بشكل واضح، مقارنة بما كانت عليه في عهد ماو تسي تونج. فهناك جرائم خطف النساء والأطفال وبيعهم، وجرائم الاغتصاب والسلب والقتل وتهريب المخدرات، وجرائم العنف، والجرائم المتعلقة بالأسلحة، وجرائم العصابات، وجرائم نشر المطبوعات غير المشروعة. ولعلّ أفظع هذه الجرائم تلك الجرائم الجنائية الخطيرة التي ارتكبها تشانج تشي تشيانج، و(٣٥) مجرماً في هونج كونج والمناطق الداخلية الصينية حيث ألقوا القبض عليهم بأمر المجتمع وسلامة المواطنين الصينيين وممتلكاتهم. ولقد تعبت عصابات (ترياد) المنظمة تنظيماً دقيقاً في هونج كونج، والقوية بأسلحتها وعددها وميزانيتها المالية دوراً كبيراً في نشر الجريمة في هونج كونج. والمدن الأخرى. وتأتي مشكلة الجريمة في ماكاو التي عادت إلى الصين في ٢٠ ديسمبر عام ١٩٩٩م، والتي كانت تحتلها البرتغال، لتقض مضجع الصينيين في هذه المدينة. فماكاو «التي تعتبر (جنّة) الملاهي بمختلف أنواعها هي أيضاً أكبر مساحة مفتوحة لكلّ أنواع التهريب وتبييض الأموال، ولذلك فإنّ «حروب العصابات» فيها لا تنتهي والضحايا يتساقطون سنوياً».

ومن المشاكل التي تعاني منها الصين المعاصرة في ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح، والتي أسهمت في تشويه سمعتها خارجياً أمام الرأي العام العالمي، وداخلياً أمام قومياتها المتعددة التي تبلغ (٥٦) ستاً وخمسين قومية وضع العالم لها في اللوائح السوداء المعادية لحقوق الإنسان.

ولعلّ أهم الأحداث في مسيرة الصين المعاصرة، بعد انتهاجها سياسة الإصلاح والانفتاح، التي أسهمت في تشويه سمعتها عالمياً، ووضعها على اللوائح السوداء المعادية لحقوق الإنسان هي مذبحة (تيان آن مين)، في عام ١٩٨٩م.

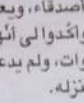

ومن المشكلات الجديدة التي ظهرت في الصين، في ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح، مشكلة الدعارة السرية والعلنية التي غصّت بها المدن الصينية، وبخاصة الكبرى منها. وعلى الرغم من محاولات الدولة الجادة للتخلص من هذه المشكلة، بأساليب القمع المتعددة، إلاّ أنها لا تزال قائمة ونشيطة في البيوت السرية والملاهي والمراقص وقاعات الحلاقة، وصالونات الشاي، والميادين العامة الكبيرة، والأحياء الشعبية التي تغصّ بالفقراء والمهمشين. وقد كان لهذه المشكلة أثر سلبي على صحّة المجتمع الصيني المعاصر، إذ سببت مزيداً من الأمراض الجنسية، وبخاصة مرض الإيدز. وعندما سألت صديقاً صينياً عن عدد المصابين بهذا المرض في الصين قال: إنه لا يعرف عددهم بالضبط، إلاّ أنه سمع أن الأطباء يقولون إنّ عددهم حوالي (٧٠٠,٠٠٠)، سبعمائة ألف مصاب ومصابة، ويترقّب معظمهم في المدن الجنوبية الصينية.

وهناك ظاهرة حساسة وخطيرة بدأت تظهر في الصين أخيراً، بفعل سياسة الإصلاح والانفتاح، وهي ظاهرة الشخص الثالث، أي عشيق الزوجة، أو عشيقة الزوج. فمعظم الزيجات في الصين تأتي بعد محبة عميقة موشاة بكثير من الرومانسيات وأحلام الحبّ الكبيرة. والإخلاص والوفاء الزوجي، والوعود المقدسة بالوفاء وعدم الخيانة الزوجية، إلاّ أنّ حمّى الملهيات وراء المال والامتلاك والتجديد والبذخ والثراء واقتناص فرص الملذات، تسهم في تخريب هذه الزيجات، لأنّ الزوج أو الزوجة، وبعد مضي سنوات ليست طويلة من الزواج يصيبهما الفتور والملل والرتابة وخمود الاندفاع العاطفي تجاه الشريك، بالإضافة إلى ضغط الحياة الزوجية الاقتصادي والإنساني، فيلجأ كلّ منهما إلى اتخاذ عشيق سري، واحياناً يكون علنياً، وبمعرفة كلّ منهما.

وهناك مشكلة داخلية أخرى يتجاهلها الساسيون الصينيون، أو يحاولون تغييبها بفعل قوة السلاح، وهي:

إحساس الأقليات من القوميات الأخرى بالظلم والمهانة، وأنها لا تُعامل على قدم المساواة مع قومية (هان) الكبرى التي تشكّل الأغلبيّة العظمى من سكان الصين، والتي تحصل على أكبر الامتيازات السياسية والاقتصادية والماليّة والوظيفيّة، والتي تُعامل بدلال وتقدير من قبل المسئولين الصينيين مقارنة بالقوميات الأخرى. وقد عبّر لي بوضوح غير واحد من أبناء هذه الأقليّات أنّ لا مستقبل وظيفيّاً لهم في بكين، وأنهم من الصعب أن يحصلوا على وظائف في بقية المدن الأخرى، لأنّ حظوظهم نادرة مقارنة بحظوظ أبناء الصين من قومية هان، وأنّ إحساسهم بالغربة حادّ ومؤرّق في بكين، لأنّ البكينيين لا يقبلونهم أصدقاء، ويعاملونهم بحذر شديد، وريبة كبيرة، وأكّدوا لي أنهم مقيمون في بكين منذ خمس سنوات، ولم يدعهم شخص واحد من سكانها إلى منزله.

وجاء جيانج تسه مين إلى السلطة بعد وفاة دنج شياو بنج في عام ١٩٩٥م، لينهج طريقته، وليقلّده في سياسته الإصلاحيّة والانفتاحيّة، وفي تعامله مع الرموز السياسية، فقد أطاح دنج شياو بنج برموز التيار الهاوي الأقوياء في الحزب الشيوعي الصيني، وأهمّهم عصابة الأربعة، وهوا كو فينج رئيس الوزراء، ليخلو له الجوّ، وليكون صاحب الكلمة الأولى والأخيرة، أمّا جيانج تسه مين فقد أتقن الدرس جيداً من سلفه دنج، ونحا الأسلوب نفسه، إذ قوّى نفوذه في مؤسسات الدولة، وضمن الجيش إلى جانبه، بالإضافة إلى كوادر الحزب الشيوعي الحاكم ودوائره ولجانه، وبخاصّة اللجنة المركزيّة، وقام بعملية التفاف على أصحاب النفوذ القدامى المقربين من دنج شياو بنج، وأبرزهم (زهو جوان وو)، الذي يعدّ من أهم أقطاب السياسة والاقتصاد الكبار في الصين، وعزله من منصبه كرئيس لأكبر شركة صينية لتصنيع الفولاذ الداخل في الإنتاج الحربي، واعتقل ابنه صاحب الاستثمارات الكبيرة في هونج كونج، وفي الصين كلها، بتهمة «جرائم اقتصادية»، وقد كان هذا الاعتقال بمثابة رسالة تحذير إلى جميع المقربين من الزعيم الراحل دنج شياو بنج، وبخاصّة إلى أبنائه وبناته الذين يتقلّدون مناصب مهمّة في شركة الفولاذ المسمّاة (شوغانج)، والذين يبدون اهتماماً بعالم المال والتجارة أكثر من اهتمامهم بعالم السياسة، وعمد إلى ترقية (١٩) تسعة عشر من العسكريين المقربين منه، والموالين له إلى رتبة جنرال، وهو أكبر عدد من الترقيات يقوم به رئيس صيني دفعة واحدة، بحكم منصبه كرئيس للبلاد، وقائداً أعلى للقوّات المسلّحة، وطلب من هؤلاء الضباط تنفيذ تعليمات الحزب الشيوعي الصيني واللجنة المركزيّة العسكريّة، وهما المؤسستان اللتان يتربّع على قمتيهما، أي تحديداً رفع لواء الطاعة والتقيد التام بأوامره ونواهيه، وروّج لنفسه إصراره على متابعة القيام بحملة كبيرة على الفساد المالي والإداري، والتي كانت قد أطاحت بالعديد من حكام الأقاليم ورجال المصارف الكبار في المقاطعات، وذلك أملاً في امتصاص نقمة الرأي العام المتصاعدة بشأن الفساد المستشري في دوائر الدولة والحزب، وحتّى لا يكون أمام نوّاب الشعب حجة إثارة البلبلة والانتقادات بشأن تراخيه.

جاء جيانج تسه مين إلى السلطة مصمماً على دفع عجلة الصين سريعاً نحو الإصلاح والانفتاح على الغرب، والنمو الرأسمالي والخصخصة، والتخلي عن معظم مبادئ النظام الاشتراكي ومفاهيمه وقيمه. ويقول الصينيون المعاصرون: إنّ البيروقراطية والفساد والاستبداد الإداري، والرشوة والمحسوبيات والعلاقات الشخصيّة، هي ظواهر لا تزال قائمة في بنية النظام السياسي وهيكليته السياسية والاقتصاديّة، الذي يتزعمه جيانج تسه مين.

كان الزعيم ماو تسي تونج بشهادة أعدائه وأصدقائه مقاتلاً شجاعاً، وشاعراً موهوباً، ومفكّراً استراتيجياً، وقارئاً متميّزاً، وبخاصّة في التاريخ القديم والحديث، وقائداً عسكرياً قلّ نظيره، وعنيداً وصبوراً، وأيديولوجياً يعي منهج السياسة الذي يصلح لبلاده، ومحبّاً لفقراء شعبه وفلاحيه وبسطائه، وقد ضرب أعظم الدروس في الوطنيّة والإخلاص لشعبه. وإذا كان مستبداً ودكتاتورياً في بعض مواقفه وآرائه، فإنّ ذلك لا ينفي عنه فضائله الإنسانيّة الكثيرة. إنّ كثيراً من حكام العالم المعاصرين لأشدّ منه استبداداً ودكتاتورية، وأذى للشعوب المسالمة والناميّة، وسطواً على خيراتها الاقتصادية، ومواردها الكثيرة. أمّا هو - أي ماو تسي تونج - فقد كان نصيراً كبيراً لحركات التحرر في كثير من دول العالم.

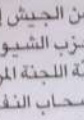

على أنه يجب أن نقول - من باب الإنصاف - إنّ الصين في عهد (جيانج تسه مين) تطوّرت تطوّراً كبيراً في مجال الصناعة والعمران والاقتصاد، فالنهضة العمرانيّة في الصين تضاهي النهضة في كثير من عواصم العالم الأوروبي، حيث توجد في الصين البنايات الشاهقة، والشوارع الواسعة، والميادين والساحات، والحدائق العامة المخططة تخطيطاً جميلاً ومدهشاً. وعلى الرغم من الأزمات الاقتصادية التي تهزّ كثيراً من عواصم العالم، فإنّ الاقتصاد الصيني يحقّق نمواً ونجاحاً كبيراً، وقد تزامن نموّه مع تجارة خارجيّة نشيطة أسهمت في إنعاش اقتصاد (٢٠٠) مليون صيني من سكان السواحل الصينيّة. وقد فاقت منتجات الصين من الحبوب والقطن واللحوم وزيوت الطعام والفحم والفولاذ والإسمنت والأقمشة وأجهزة التلفزيون، في عهد (جيانج تسه مين)، إلى المركز الأول في العالم.

وفي ظلّ الاقتصاد الصيني المزدهر تضاعف معدّل نصيب الفرد من مجمل الناتج الوطني في عام ٢٠٠٠م أربع مرّات عمّا كان عليه في عام ١٩٨٠م، وتحسّنت أحوال الفقراء، وتمّ الإسراع في بناء نظام المؤسسات الحديثة.

كما أولت الحكومة الصينيّة اهتماماً كبيراً بالتعليم، بمختلف مراحله، وبخاصة مرحلة التعليم الجامعي، فقد وصل عدد الجامعات في الصين حتى ١٩٩٨م إلى (١٠٢٢) جامعة، يدرس فيها (٣,٤١) مليون طالب وطالبة، أمّا الجامعات الخاصّة بالكبار فقد بلغت(٩٦٢) جامعة، ويدرس فيها (٢,٨٢) مليون طالب وطالبة.

وتولي هذه الجامعات أهميّة كبرى للدراسات العليا فيها، ففي عام ١٩٩٨م، حصل (٣٨٠٥١) طالباً وطالبة على درجة الماجستير فيها، وحصل (٨٩٥٧) طالباً وطالبة على درجة الدكتوراه، وقد أسهم هؤلاء الخريجون إسهاماً كبيراً في تقدّم الصين وتطوّرها، فقد ذهبت أعداد كبيرة من الأكفاء الخريجين إلى مواقع العمل، وقد شهدت المؤسسات التي تديرها الجامعة، بالاعتماد على التكنولوجيا العاليّة، تقدّماً كبيراً، إذ قامت بتصدير منتجاتها المتطوّرة تكنولوجياً إلى الأسواق العالميّة. إلاّ أنّ التعليم العالي في الصين لا يزال في حاجة ماسّة إلى مزيد من الإصلاحات في النظم التربويّة، والبرامج الجامعيّة، والنظم الماليّة والأقساط الجامعيّة، والإدارة البيروقراطيّة السيئة، حتى يكون قادراً على مواكبة الثورة المعرفيّة والعلميّة الكبرى التي تشهدها جامعات العالم المتحضّر. وقد دعا (لي لان تشينج) نائب رئيس مجلس الدولة الصيني إلى مزيد من الإصلاحات في التعليم الجامعي قائلاً: «إنّ إصلاح نظام التعليم العالي الإداري قد خطا خطوة هامّة للغاية، إلاّ أنّه لا يعني أنّ مهمة الإصلاح قد انتهت، بل إنّه بداية للإصلاح بشكل ما، كما أنّ مهمات الإصلاح والتنميّة المستقبليّة ستكون أكثر مشقّة». ■

الهوامش

(*) أمضى كاتب المقال عدة سنوات أستاذاً للغة العربية وآدابها في جامعات الصين. ويأتي المقال تعبيراً عن مشاهداته وانطباعاته.